أم الفرح وبناتها

ايريس حبيب المصرى

أم الفـــرح
وبناتـــها

ابريس حبيب المصرى

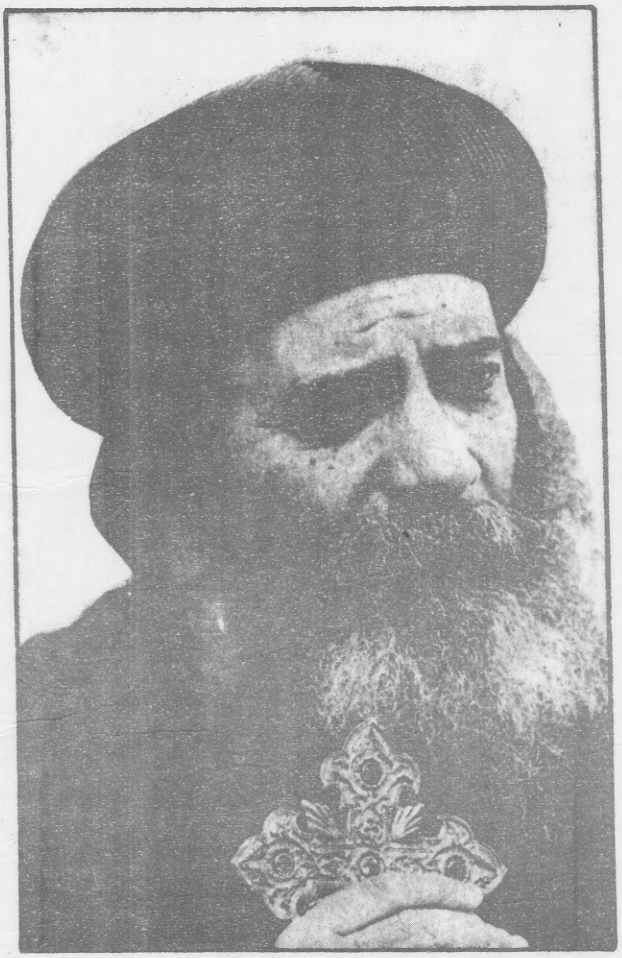

البابا شنودة الثالث

الصليب المحيط بالعالم كله

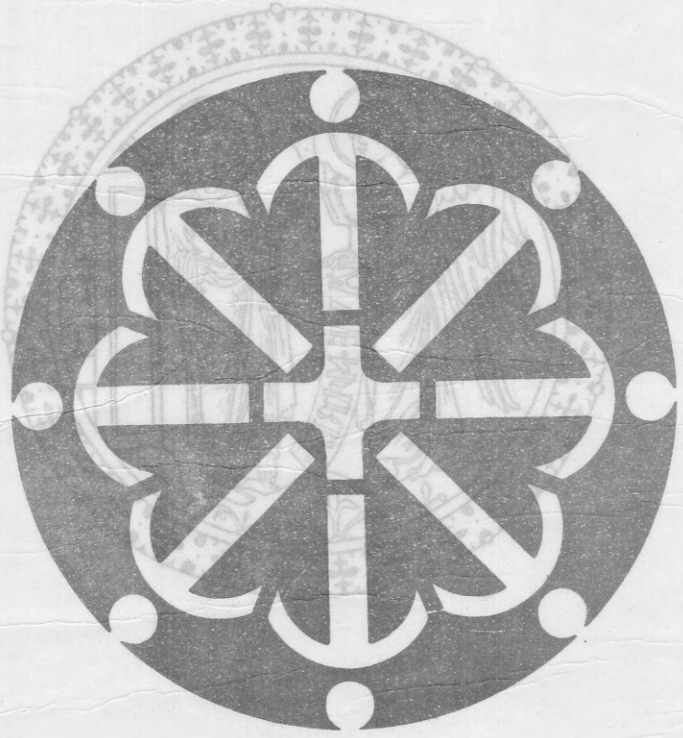

وهو السبب لفرح السيدة العذراء

« ... سأراكم فتفرح قلوبكم ولا ينزع أحد فرحكم منكم ... »

يوحنا ١٦ : ٢٢

البشارة

أيقونة تزين نسخة لاتينية من أنجيل لوقا
ترجع الى القرن السابع عشر

هوذا أنا أمة الرب

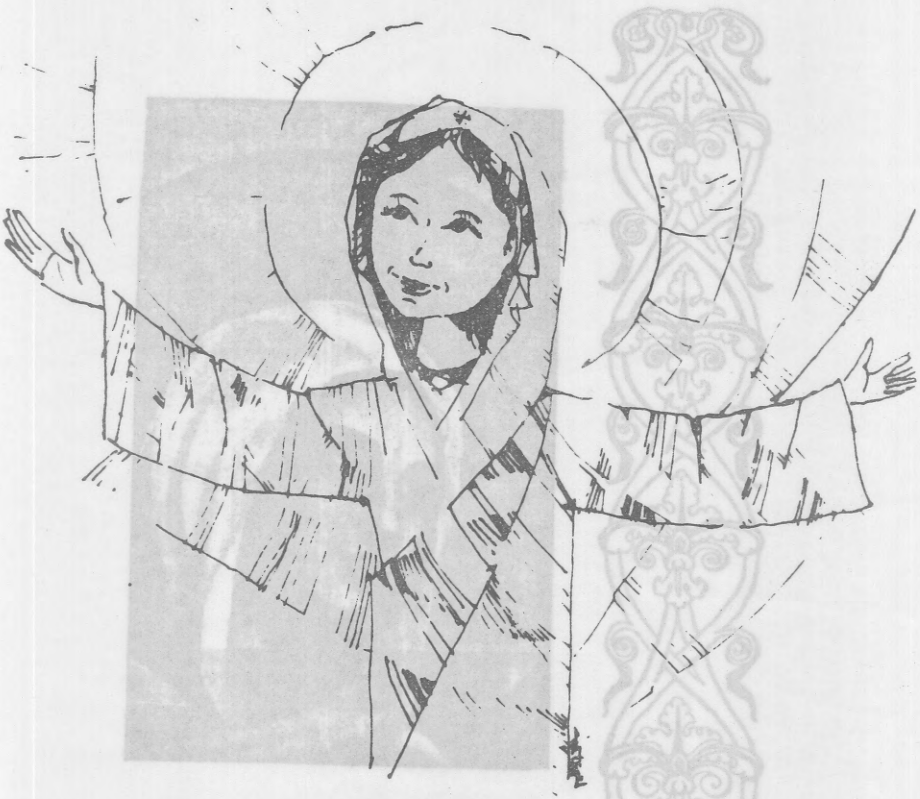

السيدة العذراء
أم الفرح

للفنّان الناشىء
حبيب أمين المصرى

ثلاثة ملائكة يتهللون فرحاً
للميلاد العجيب

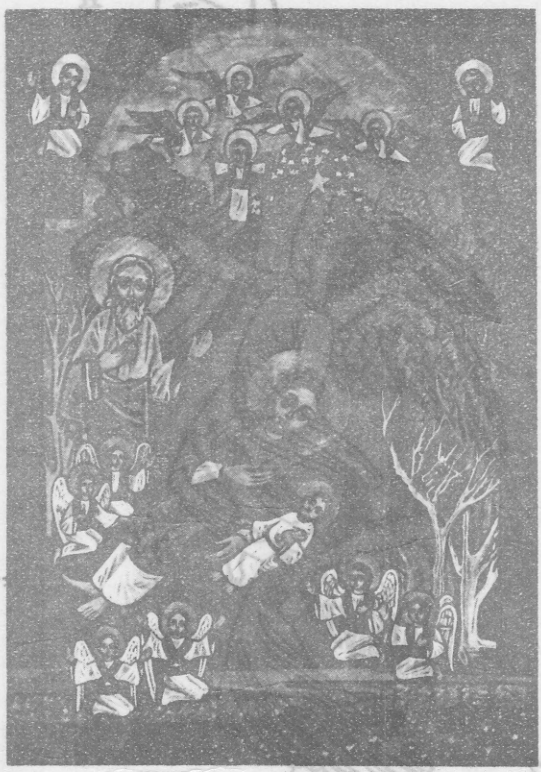

الميلاد العجيب

للفنّانة المعاصرة بدور لطيف

حرم الفنان يوسف نصيف

الخروج من بيت لحم ليلا
للهرب الى مصر

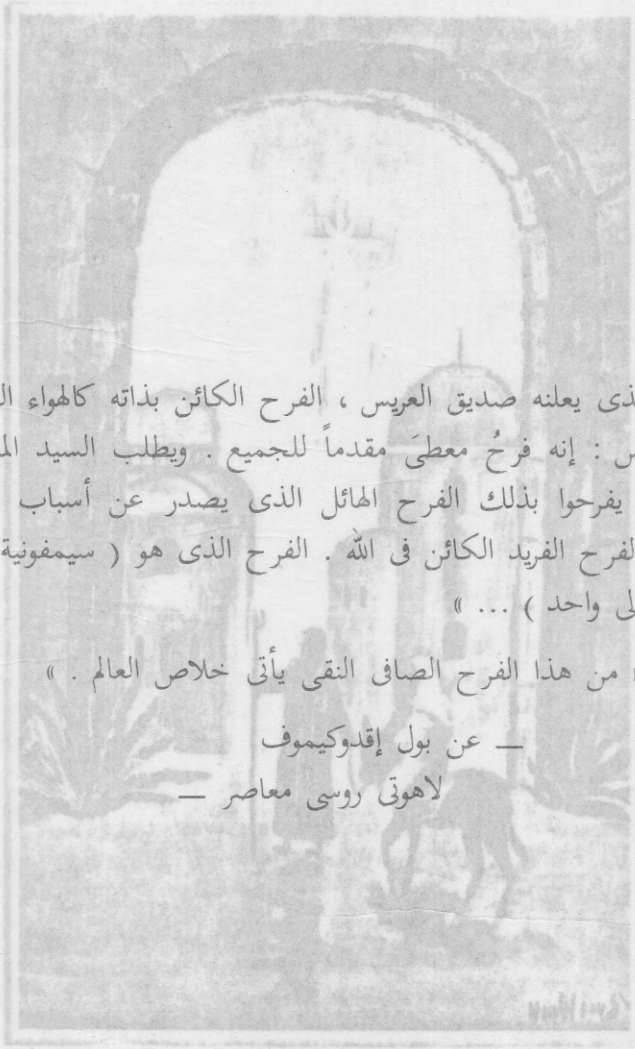

« والفرح الذى يعلنه صديق العريس ، الفرح الكائن بذاته كالهواء الصافى فى ضوء الشمس : إنه فرحُ معطىَ مقدماً للجميع . ويطلب السيد المسيح الى تلاميذه أن يفرحوا بذلك الفرح الهائل الذى يصدر عن أسباب أعلا من الإنسان : الفرح الفريد الكائن فى الله . الفرح الذى هو (سيمفونية) المعنى (للحاجة الى واحد) ... »

« من هذا الفرح الصافى النقى يأتى خلاص العالم . »

— عن بول إفدوكيموف
لاهوتى روسى معاصر —

مقدمـــة :

إن أعجب ما فى كتابنا المقدس هو أننا كلما قرأناه اكتشفنا فيه أموراً جديدة حتى لكأننا نقرأه لأول مرة ! وليس هذا بغريب على الأسفار الإلهية التى هى الرسالة الموجّهه من الله الى الإنسان لأن الله له المجد قد أودع تعاليمه وإرشاداته فى هذه الأسفار . وبما أن المخلوق ينمو ـــ والمفروض أنه ينمو روحياً أيضاً ـــ فهو يكتشف التعاليم تبعاً لنموّه : « لما كنت طفلا كطفل كنت أفطن . وكطفل كنت أفتكر . ولكن لما صرت رجلًا أبطلت ما للطفل ... »[1] وبهذه الكلمات عبّر رسول الأمم عن التحّول الروحى الذى يجتازه الإنسان المتطلّع نحو الله .

وبهذا المفهوم المتزايد يوماً بعد يوم نعود للحديث عن المرأة بنت حواء الجديدة .

١ ـــ من العجيب بمكان أن الغالبيّة منا تحفظ آيات معيّنة وتستمر فى ترديدها حتى تصبح جزءً من اللاوعى . وليس الخطأ فى حفظ الآيات المقدسة ولكنّ الخطأ هو فى التركيز على البعض منها الى حد نسيان البعض الآخر ! **وبما أن الكتاب المقدس « كل » فقد أوصانا الآباء بضرورة معرفته لكى نرى كيف أن كلًا من أسفاره يكمّل الآخر ويفسّره .**

وهذا التركيز يبدأ فى أذهاننا « من البدء » . فالأصحاح الأول من سفر التكوين يعلّمنا أن « الله خلق الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم . وباركهم الله وقال لهم أثمروا واكثروا وأملأوا الأرض . وأخضعوها . وتسلّطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدبّ على الأرض » . وهذا التعليم يدلّ على المساواة التى شاءها الخالق المنصِف . والتفرقة فيما بينهما هى فى اختصاص كلٍ منهما تبعاً للطبيعة العضوية التى منحها لكلٍ منهما . ولنلحظ أن هذا قيل قبل أن يخلق الله آدم[2] . وأهمية هذه الملاحظة ترجع الى أن الله « من البدء » شاء أن يخلق الذكر والأنثى . فحاشا لله أن يخلق شيئا ناقصا ثم يكمّله ـــ إنه ليس إنسانا فينسى .

---

(١) ١ كورنثوس ١٣ : ١١ (٢) تكوين ١ : ٢٦ ـــ ٢٨

وحين يحدّثنا الأصحاح الثانى عن خلق الله للمرأة يصوّر لنا الإكرام الذي أحاطه به . **فهو أولًا ألقى سباتاً[1] على آدم ، ثم أخذ منه ضلعاً كوّن منه المرأة . وحين أفاق آدم قدّم الله له حواء بنفسه ــ فهل هناك أكرامٌ أعظم من هذا ؟**

وإذا فتشّنا الكتب كما أوصانا ربنا نجد أن الكلمة « معينا » فى الأصل العبرى هى « إيزر » أى آزر أو عضد فإن تمعّنا الكلمة فى أصلها ندرك أن الله خلق حواء لتكون « مؤازراً » نظيره والمؤازرة (أو العضد) كثيراً ما استعملها موسى فى حديثه الى الشعب اليهودى ليعبّر بها لهم عن « عضد » الله لهم . كما أن أشعياء يتّخذ من التعبير عينه وسيلةً لوصف دور المسيا .[2]

وهذا التعبير الأصيل لا يحمل أى معنى ولا أية إشارة الى الخضوع مقابل السيادة . كذلك لا يشير إطلاقاً الى أن حواء أقل قيمة من آدم أو أنها مخلوقة لإرضائه – كأنها لم تكن فى فكر الله من قبل ثم طرأت على باله حين رأى «الذكر» وحيداً ! والعجيب أن سفر التكوين نفسه يشهد على أن خلق الله « من البدء » وقبل إبراز أيٍ منهما الى الوجود كان يهدف الى الاثنين . فإنه ــ بعد أن أوجد تعالى مختلف المخلوقات « ورأى ذلك أنه حسن » ــ قال « يعمل الإنسان على صورتنا ... » هذا كله ورد دون إشارة الى إبراز الإنسان للوجود فعلا . ثم أكّد موسى إبداع الله فى تسلسل الخليقة مرة أخرى وانتهى الى القول : « وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض . ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية ... »[3] **وبالتأمل فى هذا التأريخ نرى أن الخالق أعلن عن خلقة الإنسان ذكراً وأنثى وأشار إليهما بالمفرد ثم بالجمع لأنه شاء « من البدء » أن يكونا فى وحدة تجمعهما به وتجمع معهما الأولاد الذين سيولدون لهما** . وأكبر دليل على ذلك أنه قال لهما ــ قبل وجودهما ــ أثمروا وأكثروا ... ثم قال ــ بعد أن

(١) هذا السبات ليس نوماً عادياً ولكنه الغيبوبة التى تصيب الإنسان عند اقتراب الله منه كما وقع لإبراهيم مثلا . تكوين ١٥ : ١٢

(٢) أشعياء ٤٢ : ١ ــ ٤ ، وكلمة عضد الذى استعملها النبى رددتها السيدة العذراء فى تسبحتها كوصف من أوصاف طبيعة الله .

(٣) تكوين ٢ : ٧ .

خلقهما كليهما ـــ « من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته » فهل كان لآدم أبوان يتركهما ؟ واضح أنه لم يكن له . ومع ذلك أعطاه هذه الوصية . لماذا ؟ لأن الزمن لا وجود له عند الله الأزلى (بلا نهاية) الأبدى (بلا نهاية) . وهو ـــ له المجد ـــ حين رأى ذلك « أنه حسن » رآه قبل ايجاد الإنسان بالفعل . ولكنه رآه وقد بدأ الإنسان عمله فى الوجود ، ثم أثمر هو وحواء وملآ الأرض . إنه رأى الخليقة كلها من قبل أن يوجدها . رآها الى آخر الدهور حين تنطوى الأرض بمن عليها وما عليها . وهو فى مباركته للإنسان باركه باعتبار النعمة التى سينالها فى الفداء ، لأن نعمته تخطّت السقوط ورأت الانسان المصنوع على صورته ومثاله بعد أن استعاد الصورة والمثال فى شخص يسوع المسيح .

هذا كله يتضح لمن يقرأ بإمعان : فأول كلمة فى سفر التكوين هى « فى البدء » ، وأول كلمة فى بشارة يوحنا الحبيب هى « فى البدء » . صحيح أن الآية الأولى تقول : « فى البدء خلق الله السماوات والأرض ... » ، بينما يعلن لنا التلميذ الحبيب « فى البدء كان الكلمة » . ولكنّ « الكلمة » المتجسّد الذى هو « فى البدء » هو بعينه الذى صاحب الإنسان الساقط من خلفيّته أولًا ثم جعل مصاحبته له علنيةً بالتجسّد . إذن فبالارتكان على الأسفار الإلهية نرى أن حواء لم يخلقها باريها كفكرة طارئة مكمّلة لعمل بداه بل هى كانت فكره « من البدء » . وهو ـــ له المجد تمهّل فى خلقها الى أن شعر آدم باحتياجه الى « معين نظيره » ، والدليل أنه فرح حين أتاه الله بها .

والفرحة بادية فى هتافه التلقائى : « هذه الآن عظم من عظمى ولحم من لحمى » .

هذا كله كان « فى البدء » : فى الإنسان الذى استهدف الخالق أن يعيش عيشة المحبة والألفة ليعكس بعيشته صورة المحبة الإلهية ومثاليّتها . وفى هذه المحبة المنشودة من الله لا وجود لسيطرة « ذكر » على « أنثى » ، ولا لخنوع « أنثى » « لذكر » . فالخالق المبدع ذاته لم « يفرض » بل أوصى : وأوصى الرب الإله آدم قائلا : « من جميع شجر الجنة تأكل أكلا . أما شجرة معرفة الخير والشر فلا

تأكل منها ». إنه أوصى الإنسان ثم احترم حريته فى أن ينفّذ الوصية أو يعصاها . وإلا فكيف سقط الإنسان لو لم يكن الله قد احترم حريته فى الاختيار ؟ واحترام الله لحرية الإنسان واضح من نصّ الكتاب المقدس إذ لم يُقم بين آدم وحواء وبين الشجرة المحرّمة أى حاجز . فكان الحاجز الوحيد الذى وضعه الخالق لمخلوقه هو وصيته وحدها .

وتوضيحاً لما شاءه الخالق « فى البدء » كتب القديس أنطونيوس أبو الرهبان رسالةً الى أهالى أرسينوى (الفيوم) يقول : « إننى أعرف يقينا أيها الأحباء أنكم تملكون ذلك الشأن العظيم كى تتقبلوا للحصول على معرفة هبتكم السامية التى لا يوجد فيها ذكر ولا أنثى بل يبتغى منها الجوهر الخالد ».

وبعد أن تحدث القديس العظيم عن الملائكة والسمائيين ، تحدث عن البطاركة والأنبياء والملوك والكهنة والرسل ، واستكمل حديثه بقوله : « كثيرون غيرهم تمّ اختيارهم بسبب إنجازاتهم الفائقة . وعموماً فإنهم يحصلون على هذه الأسماء سواءً كانوا ذكوراً أو إناثا من أجل أعمالهم المختلفة ــ لأن الجميع من واحد » .

وأمام هذا التوضيح الإنسانى المتسامى يليق بنا أن نتذكّر بأن كوكب البرية كان يهدف الى العزلة حين ترك العالم . ولكن الآب السماوى الفاحص القلوب جعل صيته يذاع لكى يتعلّم الناس منه . وليس ذلك فحسب بل إنه حين كان يذهب الى الاسكندرية اثناء الاضطهاد استهدافاً للاستشهاد قال له الله « أنت أم رؤوم ، لذلك سأحفظك لرعاية « الكثيرين والكثيرات » . ويحليق بنا أن نتأمل الفارق بين التسمية الإلهية والتسمية الإنسانية : فالناس يصفون الأنبا أنطونيوس بكلمة « أبى الرهبان » فى حين أن الله دعاه « أم رؤوم » ــ أى أم رهيفة الحنان ــ أفلا نرى فى هذه التسمية تكريما للأمومة ولمكانتها عند الله ؟ أفلا نسمع من خلف هذه التسمية صدى محبة السيد المسيح لأمه ؟

ولا يدهش القارىء من كلمة « الكثيرات » لأن أبا الرهبان حين قام برحلته الراعوية زار أديرة الراهبات وبيوت المكرسات ليتفقدهن .

على أن التركيز العام ــ حتى بين النساء ــ هو على السقوط ونتائجه . وهنا يجب أن نذكر أن آدم الذى فرح بحواء ساعة أن قدّمها له الخالق المبدع تنكّر لها على الفور حالما سأله خالقه إن كان قد أكل من الشجرة المحرّمة إذ أجاب من غير تردد : « المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت »[1] . ونظرة عابرة تدفعنا الى الظن بأنه ــ فى هذا الرد ــ قد ألقى اللوم على حواء ولكن إذا ما تمعّناه وجدناه يتضمن لوم الخالق المبدع ــ فآدم قال : المرأة التى جعلتها معى » ــ أى أنت السبب فى سقوطى بجعلها معى ! فليتفطّن الرجال الآن كلما ساورتهم هذه الهواجس الآدمية ! وليذكروا أن الله لم يُخلِ آدم من مسئولية عصيانها بل وقّع عليه العقاب أيضا .

ونحن الى الآن مازلنا لا نسمع غير القول بأن حواء هى سبب السقوط ، وبأن **الجنس الاضعف هو جنسى « بنات حواء »** . كأن هناك رجلا معصوماً من الخطأ !

والغريب أن هذا التركيز يصدر عمّن آمنوا بالفداء العجيب ومارسوا تطويب السيدة العذراء الموصوفة بأنها « حواء الجديدة » و « أم الخليقة الجديدة » . ومع أن الرأى يقول : « هوذا الكل قد صار جديداً » فلايزال هناك من يستمّرون على وصف النساء بالتسمية القديمة . **أفلم يَحنِ الوقت إذن لأن يتحوّل هذا التركيز من التغيير بأنهن « بنات حواء » الى التكريم بأنهن « بنات حواء الجديدة » التى كانت المجرَى لتحقيق وعد الله بافتداء الإنسان من عبودية الشيطان ؟ أفلم يَحنِ الوقت أيضا بالتركيز على أن « نسل المرأة هو الذى سحق الحية » ؟**

٢ ــ هذا من جهة ومن الجهة الأخرى **نكتشف أن الله حتى فى العهد القديم لم يجد أية غضاضة فى تشبيه نفسه بالمرأة !** فهو له المجد فى إحدى المرات التى كان يعاقب فيها إسرائيل على عصيانه قال : « ... وغَبِىَ عن صخرة خلاصه » ثم عاد وقال « والصخرة التى ولدتك تركتها ... »[2] ثم رنّ صدى هذه الكلمات ولكن بصيغة إيجابية فى قول بولس الرسول : « لأنهم كانوا يشربون من صخرة

(١) تكوين ٣ : ١٢ (٢) تثنية ٣٢ : ١٥ ، ١٨

روحية تابعتهم . **والصخرة كان المسيح**[1] . ولقد وضحت مكانة الصخرة بكل جلاء فى تعامل الله مع موسى وأخيه هرون عندما أمرهما بأن يكلّما الصخرة لتعطى ماءها . ولكنّ موسى رفع عصاه وضرب الصخرة . صحيح أن ماءً غزيراً تدفّق لأن معطى الحياة لا ينضب معينة لعصيان الناس وإلا لهلك بنو البشر من قديم . ولكنّ الله عاقب موسى وهرون بحرمانهما من دخول أرض الموعد[2] وهنا نرى تنبيها رهيبا لكل المسئولين والمسئولات : فموسى لم يعصَ أوامر الله إلا فى هذه المرة — ومع ذلك فمرة واحدة استوجبت هذا العقاب الإلهى الشديد .

وحين أراد الله أن يطمئن القلوب الى حنانه أعلن « هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها ؟ حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك »[3] **أما فى عهد النعمة حين أخلى رب المجد نفسه آخذاً شكل العبد فلم يستنكف من أن يشبه نفسه بالدجاجة التى تجمع فراخها تحت جناحيها**[4] .

وكما رضى الرب بأن يشبّه نفسه بالصخرة وبالأم ، رضى أيضا بائتمان المرأة على حمل بشارته ، فنسمع داود يهتف : « عظيمة كانت جماعة النسوة المبشرات بها »[5]. بينما يرنّ فى آذاننا قول أشعياء حتى لكأنه دوىّ الرعد : « على جبل عالٍ إصعدى يا مبشّرة صهيون . إرفعى صوتك بقوة يامبشرة أورشليم . إرفعى . لا تخافى . قولى لمدن يهوذا إلهك »[6] . وقد تردّد هذا الرنين على مدى الأجيال الى أن تحقّق فى السامرية وفى المجدلية . فكلٌّ منهما حملت البشارة بقوة ومن غير خوف .

٣ — وثمة حقيقة نتناساها تحت تأثير التركيز على بعض ماجاء فى الكتاب المقدس دون البعض الآخر هذه الحقيقة هى أن المسيحية لم تكن إطلاقا دين

---

(١) ١ كورنثوس ١٠ : ٤ و ويجب أن نذكر أن السيد المسيح صرّح بأن الاعتراف بربوبيّته هو الصخرة التى يبنى عليها كنيسته — متى ١٦ : ١٨ (و ٢٣) وهذا معناه أن الصخرة المشار اليها هى بمثابة الأم للكنيسة ثم إن كلمتى «   » (مثينوتى = لاهوت) و «   » (تيترياس = الثالوث) هما بصيغة المؤنث .

(٢) عدد ٢٠ : ٨ — ٢٣ (٣) أشعياء ٤٩ : ١٥ (٤) متى ٢٣ : ١٧

(٥) مزمور ٦٨ : ١١ « حيث وردت « الرب يعطى كلمة « لمبشرات بها » (٦) أشعياء ٤٠ : ٩

تمرّد ؛ ولم تهدف إطلاقا الى قلب الأوضاع بعنف . فرب المجد قد شبه الملكوت بالخميرة والبذرة[1] وكلاهما عمله صامت خفى مع كونه أكيد . وهنا أيضا يجدر بنا أن نذكر أن فادينا الحبيب — فى المثل عن الخميرة — وضع المرأة فيه رمزاً الى الله ! ولم يضعها فى هذا الوضع هنا فقط بل وضعها فيه أيضا وهو يتحدث عمن أضاعت درهما من دراهمها العشرة[2] ! فالمسيحية دين يتغلغل فى أعماق القلب ويخمّره ، ومتى اختمر ونضج فيه الوعى عمل على تنفيذ التعاليم الإلهية بهدوء واتّزان . وأوضح مثل على هذا التغيير الناتج عن نضوج الوعى المسيحى هو إلغاء العبودية .

وليس ذلك فحسب بل إن السيد المسيح لكونه رفعنا الى درجة البنوّة وأعطانا حرية مجد أولاد الله فإنه له المجد قد وضع لنا المبادىء والتعاليم الأساسية فى شامليّتها وترك لنا التفاصيل . وقد لفت انتباهى الى هذا الواقع حديث شابة فى شكل استفهام قالت : « إن السيد المسيح لم يقل لنا بصريح العبارة إن الزوجية تقوم بين رجل واحد وامرأة واحدة بل اكتفى بالإجابة التى أعطاها للفريسيين حين سألوه عن الطلاق »[3] أجبتها : « وهل هناك حاجة أكثر صراحة من إجابته؟» إذن فما دمنا بنين[4] فنحن مسئولون، ومسئوليتنا هى تجاه أبينا السماوى الذى منحنا هذه البنوّة بنعمته لأنه أحبنا . وبهذه البنوّة المجيدة علينا أن نسلك تبعاً لمسئوليّتنا .

وأمام هذه المسئولية يلحّ علىّ موقف مازلت أندهش منه : هو الحكم بوجوب تعميد الولد بعد أربعين يوماً من ولادته والبنت بعد ثمانين يوماً . ومنطقنا الإنسانى مازال يعتبر المرأة « الأناء الأضعف » . فلو تركنا جانباً أى سبب آخر لقلنا تبعاً لهذا المنطق إن الأضعف أشد حاجةً الى الرعاية من الأقوى على حد قول بولس الرسول : « فيجب علينا نحن الأقوياء أن نحتمل ضعف الضعفاء . ولانرضى

---

(١) متى ١٣ : ٣١ — ٣٣ ومرقس ٤ : ٢٦ — ٢٨ (٢) لوقا ١ : ٨ — ١٠

(٣) متى ١٩ : ١ — ١٢

(٤) هنا استعمل كلمة بنين لتشمل الذكور والإناث تبعاً لقول بولس الرسول « يعاملكم الله كالبنين » — عبرانيين ١٢ — ٧

ذواتنا »[1] . كذلك نحن نحرص على الإسراع فى تعميد الطفل لئلا يموت قبل نواله نعمة الميلاد الجديد . فترك البنت ثمانين يوماً يعرّضها تعريضا مضاعفا لخطر الموت قبل المعمودية .

والغريب أن هناك توصيات عديدة فى سفرىّ اللاويين والتثنية خاصة بالطهارة والنجاسة تركناها كلها على الإطلاق . فما السبب فى أن تظل معاملة الوالدة والوليدة هذه المعاملة التى لم تَرِدْ إلا فى هذين السطرين؟ وإن كانت المرأة قد شملها الفداء فحررها من لعنة الناموس — فلماذا تظل هذه اللعنة تلاحقها داخل الكنيسة التى هى الجسد السرىّ للفادى الحبيب والتى تُعتبر المرأة بحكم افتدائها جزءً من هذا الجسد المقدس ؟[2] .

والعجب العجاب أن بولس الرسول الفريسى ابن الفريسى هو الذى حارب التهوّد وأكّد على وجوب الفصل بين اليهودية وبين المسيحية . وهو يكرر هذا التوكيد فيقول لأهل رمية : « لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة » ويستكمل : « أما الآن فقد تحررنا من الناموس ... حتى نعبده بجدّة الروح لا

---

(١) رومية ١٥ : ١

(٢) راجع تثنية ١٢ وكذلك لاويين الأصحاحات ١١ ، ١٣ ، ١٤ وتثنية ١٤ : ٣ — ١٩ ، ٢٢ : ٥ ، ٢٣ . أو من بين الوصايا الخاصة بالنجاسة أن الكاهن الذى يمس جثة ميت (حتى من أقرب أقربائه) يتنجّس وعليه أن يتطهّر فى مساء اليوم عينه كما جاء فى لاويين ٢١-٢٢ : ١-٩. والتمييز فى الشريعة الموسية يشمل حتى الحق فى الحضور الى الهيكل : فيظهر الذكور ثلاث مرات فى السنة أمام الرب . أما الإناث فلا يظهرن إطلاقا ! تثنية ١٦ : ١٦ . كذلك شملت التفرقة فكاك النذيرين والنذيرات : فالمنذور للرب يدفعون عند فكاكه ضعف ما يدفعونه عند فكاك النذيرات . والهدف من تسجيل هذا كله هو التوكيد على أن جميع هذه الوصايا تلاشت ولم يبقَ منها إلا ما ورد بخصوص الوالدة . فهل نحن مازلنا متهوّدين فى هذا الموضوع ؟ ألم يحارب الرسل فكرة التهوّد ؟ ألم ينتصروا انتصاراً حاسما حين أقاموا الصليب حاجزاً بين السلوك بمقتضى الناموس وبين السلوك بمقتضى شريعة الكمال التى سنّها لنا الفادى الحبيب فى شامل محبته ؟

وثمة ملحوظة عابرة : ينص القانون الكنسى على أنه لا يدخل الهيكل غير الموضوعة عليهم البر ، ومع ذلك فهناك كنائس يدخل فيها الرجال داخل الهيكل وقت التناول — فلماذا ؟

يعتق الحرف »[1] بينما يتصح الغلاطيين بقوله : « فاثبتوا إذن فى الحرية التى حررنا بها المسيح »[2] . وهذه الآيات ليست سوى أمثلة بين الكثير الذى قاله رسول الأمم فى كل رسائله . بل لقد كان الصراع الذى صارعه لإقامة الصليب حداً حاسماً بين اليهودية وبين المسيحية صراعاً عنيفا داوم عليه الى أن نال اكليل الشهادة .

وفى تفسيره لتعاليم بولس الرسول يقول لنا القديس يوحنا ذهبى الفم : « **ما الفرق إذن بين ناموس الروح وناموس موسى ؟ إنه فرقٌ شاسع لا حدود له** » . فناموس موسى قد أُعطى بالروح. أما ناموس العهد الجديد فقد منح من يؤمنون به أن يحلّ الروح القدس فى داخلهم . ولهذا السبب سمّاه بولس : « ناموس روح الحياة » ؛ وما كان الناموس عاجزاً عنه فالله حققه بأن أرسل ابنه ليفتدى الجميع سواءً من كانوا تحت الناموس أو من الأمميين . والمسيح بمجيئه قد حرر الناس (رجلا ونساءً) وأزال الصعوبات من طريقهم . فمجد ناموس روح الحرية فى أن الانتصار الذى حققه شمل الإنسان فى الماضى ومازال يشمله وسيظل يشمله الى انقضاء الدهر »[3] .

ومادام هذا الانتصار كلىّ الشمولية فمن حقنا أن نتمتع به جميعا نساءً ورجالا .

وفى صدد الحديث عن أحكام الناموس الموسوى تبرز ملحوظة لها أهمّيتها هى : ماهو مفهوم كلمة « بكر » ؟ لأن كل الأحاديث والإشارات توضح للمتمعّن أنها تشمل الذكر والأنثى . ففى الشعائر المقدسة الخاصة بسر الزواج المبارك يشير الكاهن الى كل من العريس وعروسه بكلمة واحدة هى كلمة « بكر » . فهى إذن من الكلمات النادرة التى تشمل الجنسين دون تفريق بين مؤنث ومذكر . وضرورة هذا التوضيح ترجع الى أن الله قال لموسى : « قدّس

---

(١) ٦ : ١٤ و ٧ : ٩ (٢) ٥ : ١

(٣) آباء نيقية ومن بعدهم (بالانجليزية) أشرف على طبعة فيليب تشاف ج ٩ ص ٤٣١ ــ ٤٣٢

كل بكر فاتح رحم » . ثم أكّد عليه هذا التقديس بقوله : « **إنك تقدّم للرب كل فاتح رحم وكل بكر** »[1] . ومع أن كلمة « بكر » هى باستمرار فى صيغة المذكّر إلا أن الله فى الآية الثانية يقول « كل بكر » بعد القول « كل فاتح رحم » .

ثم حين أعلم الرب موسى بالضربة الأخيرة التى سيُنزلها بالمصريين قال له : « **فيموت كل بكر** » فى أرض مصر ؛ وعاد فكرر القول : « وأضرب كل بكر فى أرض مصر »[2] **دون أن يحددها بالذكور فى الحالتين . إذن فقد قتل الملاك المهلك كل بكر الذكر والأنثى دون استثناء** . ونحن قد تعلمنا من فادينا الحبيب أن الله يعامل الناس بإنصافه اللانهائى : فيشرق شمسه على الأبرار والظالمين ويمطر على الأشرار والصالحين . فهل من المعقول أن الله الشامل فى عدالته يضرب البنت البكر وحين يطلب تقديس البكر يقصره على الصبى ؟

إلا أن الأهم من هذا كله فى تقديرنا ــ نحن المسيحيين ــ أن اللحن الكنسى يترنّم بالسيدة العذراء على أنها « بكر الأبكار » . **بكر بمعنى بتوليّتها ، وبكر بأنها أولى الخليقة الجديدة** .

ومقابل هذا التساؤل سيعترض البعض بقولهم إن لوقا البشير قال : « ... كما هو مكتوب فى ناموس الرب إن كل ذكر فاتح رحم يُدعى قدوساً للرب »[3] . وهذه أول مرة يتحدد « فاتح الرحم » بكلمة ذكر . فلماذا ؟ وللإجابة على هذا التساؤل يجب أن نتفهّم موقف اليهود من الناموس ، بل ومن الأنبياء ، أيامَ أن وُلد رب المجد . فهم منذ أن استلموه من موسى ، ومنذ أن استمعوا الى الأنبياء ، ظلوا يفسّرون هذا وأولئك تفسيرات تغايرت على مر الأجيال . وأعظم دليل على ذلك تفسيرهم الخاص بالمسيا . فالأنبياء قد تحدّثوا عن المسيا بتعبيرات غاية فى العجب : فهو الملك الذى ليس لملكه نهاية ، وهو العجيب المشير الأب الأبدى رئيس السلام . ولكنه فى الوقت عينه رجل الآلام ومحتمل الأوجاع وهو مرفوض مهان ثم إنه أبرع جمالا من بنى البشر مع أنه فى الوقت عينه لا جمال له ولا

---

(١) خروج ١٣ ٢ و ١٢ (٢) خروج ١١ ٥ و ١٢ (٣) لوقا ٢ ٢٣

يشتهيه أحد وبأزاء كل هذه المضادات ركز المفسّرون كل انتباههم على ناحية المُلك والأبهة وتناسوا ناحية الألم والهوان تماماً . وهذا التركيز على العظمة والوجاهة العالمية أعماهم الى حد أنهم أنكروه حين جاء ولغّنوا فيه بأيديهم ناحية الهوان .

وعلى هذا النمط بعينه ظلوا خلال القرون يُنقصون من قيمة المرأة وينزلون بها بلا توقّف الى حد أنه عاصر السيد المسيح بعض الفريسيين يوصَفون « بالداميين » لأن الواحد منهم كان يُسبل أجفانه وهو سائر فى أى طريق كى لا يتنّجس بوقوع نظره على امرأة ! فكان لهذا السبب يعرّض نفسه لأن يتخبّط فيما يعترضه من عوائق فيتجرّح وتسيل دماؤه ! وبهذه الفكرة لم يكونوا ليستطيعون أن يكتفوا بكلمة بكر بل حددوها داخل نطاق الذكور[1] .

وليس ذلك فحسب — بل إنهم قرروا — فى تفسيراتهم — أن عشرة رجال فى قرية (أو فى مدينة) يكفون لتأليف مجمع . أما تسعة رجال وألف امرأة فلا يكفون لتكوين مجمع ![2] وهنا ندرك عمق التحوّل الجذرى الذى تحقق داخل نفس بولس الرسول فجاهد ليحققه داخل نفوس المسيحيين الأوائل . فهو حين وصل الى مدينة فيلبى خرج يوم السبت الى خارج المدينة عند نهر حيث جرت العادة أن تكون صلاة . وهناك كلّم النساء اللواتى اجتمعن[3] . **فذاك الذى كان فريسيا ابن فريسى اندفع تلقائيا نحو الحديث فى « مجمع » كله نساء وليس به رجلا واحدا** فحق له أن يقول بملء الثقة : « أنسى ما هو وراء وأمتد الى ما هو قدام » بل وأن يعلن فى توكيد : « أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فىّ » .

فعلينا نحن أولاد الملكوت أن نركّز على محبة الآب السماوى التى علّمنا إياها فادينا الحبيب ، **لأنه بعد أن كان الله لليهود « نار آكلة » أصبح لنا المحبة اللانهائية** .

---

(١) متى ١٥ : ١ — ١٤ ، ١٦ : ١١ — ١٢ ، ٢٢ : ٤١ — ٤٦ ، ٢٣ : ١ — ٣٦ ؛ مرقس ٧ : ١ — ١٣ ، ٨ : ١٤ — ٢١ ، ١٢ : ٣٥ — ٤٠ ؛ لوقا ٧ : ٣٠ ، ١١ : ١٥ — ٢٠ ، ١٦ : ١٤ — ١٥ ؛ يوحنا ٧ : ٤٥ — ٤٨ ، ٨ : ٤٣ — ٤٧ ؛ تقويم للكتاب المقدس (بالانجليزية) ص ٣٩ ، ١٧٩ ، ٤٠٩ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ — ٥١٠ ، ٥١٥ — ٥١٧

(٢) حياة بولس الرسول لپاترسون سميث (بالانجليزية)

(٣) أعمال ١٦ : ١١ — ١٥

وبعد أن كان بنو إسرائيل تحت لعنة الناموس صرنا نحن بالنعمة أولاداً تبنّانا أبونا السماوى . وليس من شك إطلاقا فى أنه لو سادت المحبة القلوب لسادت الحياة فى سلام ولتفاهم الجميع دون التشدّد فى الرياسة والمرؤوسية . **وهنا تحضرنى كلمة مأثورة عن قداسة البابا شنودة وهى : « حين فترت المحبة دخل القانون »** .

٤ ــ وثمة تغيير جذرى آخر ضمن التغييرات التى حدثت فى الفكر الروحى ما بين المسيحية وبين اليهودية لا يعرفه إلا القليلون . وهذا التغيير هو فى وجهة النظر الى البتولية . فلقد كانوا فى العهد القديم يعتبرون كلمة عذراء لقبا للاحتقار . فمثلا ناحت ابنة يفتاح الجلعادى لأنها ستموت قبل معرفتها حالة الزواج[1] . بينما نرى الأنبياء أنفسهم يتحدثون عن ابنة صهيون بنبرة التحقير بوصفهم إياها بأنها عذراء فيوئيل يقول : « نوحى يا أرضى كعروس مؤتزة بمسح من أجل بعل صباها » ويردد عاموس « سقطت عذراء اسرائيل ... انطرحت على الأرض » . أما أرميا فيبكى إذ يعلن : « داس السيدة العذراء بنت يهوذا معصرة . بماذا أقايسك فأعزيك أيتها العذراء بنت صهيون ؟ لأن سحقك عظيم كالبحر »[2] صحيح أن هؤلاء الأنبياء كانوا فى موقف المنذر بالخطر ، ولكنهم كلهم وجّهوا إنذاراتهم الى « عذراء اسرائيل » أو « العذراء بنت يهوذا » بدلا من توجيهه الى أى شخص آخر . فهم لا يذكرونها عند الترنّم بثبوت دولة يهوذا ولا عند إحراز أى نصر وإنما تبرز على ألسنتهم ساعة أن ينوحوا ويوبّخوا ! **فكأن العذراوية نوع من العيب غير المرغوب فيه** .

أما البتولية ــ كما نعرف جميعنا ــ فقد أصبحت لها كرامة خاصة منذ أن صارت والدة الآله النموذج الأعلى لها . فبدلًا من أن تكون مصدراً للخزى أصبحت أساساً للاعتزاز . ورب المجد نفسه أكّد هذه المكانة العليا للبتولية فى ردّه على الصدّوقيين : « أما بنوا الدهر الآتى فلا يتزوجون ولا يتزوجن لأنهم لا يستطيعون أن يموتوا لأنهم مثل الملائكة وهم بنو الله إذ هم أبناء القيامة .[3] والعجب هنا فى

---

(١) قضاة ١١ : ٣٧ ــ ٣٨ (٢) يوئيل ١ : ٨ ، عاموس ٥ : ٢ ، مراثى ١ : ١٥ ، ٢ : ١٣

(٣) لوقا ٢٠ : ٣٤ ــ ٣٨

أن السيد المسيح استتبع هذا الرد بالاشارة الى العليقة المشتعلة التى تعلّمنا كنيستنا المحبوبة أنها مثال أم النور سيدة البتولية[1] ــ هذه المطّوبة من جميع الأجيال التى جعلت من تواضعها وعزلتها فرصةً ليموج قلبها بالإلهيّات . وفى الثيئوتوكس (والدة الآله) بدأ للخليقة الجديدة نظام غير نظام التناسل الطبيعى : نظام يمتّد من هنا الى الأبدية ، فدخلت بواسطتها ملكوت الله الى العالم الذى كان يسيطر ناموس الزواج عليه .

٥ ــ **ومن طريف الخيال ما تصوّرته امرأة معاصرة من المزمور الحادى والخمسين** :[2] « إرحمنى ياالله كعظيم رحمتك ... » فهى تقول عنه : « إنه تعبير رائع عن التشوّق الإنسانى للنقاوة ؛ وكلماته لوصف رحمة الله كلمات تصف حنين امرأة الى ثمرة بطنها ؛ والصور المرسومة أمامنا مأخوذة من الخبرة اليومية للنسوة فى غسيلهن وتبييضهن وتنقيتهن لما فى أياديهن من ملابس أو من آنية . بل إنه ليخيّل لى أنه **من الممكن تسمية هذا المزمور « أنشودة المحبة الأمومية الإلهية »** . وفوق هذا فهناك كلمات متعددة للتعبير عن الحضرة الإلهية هى كلمات مؤنثة مثل « شاكيناه » ــ أى مجد الله ؛ « توراه » ــ أى المرشد ؛ « شوكاه » ــ أى الحكمة ؛ « رُوَاح » ــ أى الروح . إذن فلماذا أحسّ المترجمون واللاهوتيون بالممانعة فى الاعتراف بهذه الأنثوية فى الطبيعة الإلهية ؟ ولقد تساءل المرتّل قديما : « الغارس الأذن ألا يسمع ؟ الصانع العين ألا يبصر ؟[3] **واستناداً الى هذا المنطق الذى ورد فى الكتاب المقدس يقول : « الخالق الأنثى أليس به ومضة أنثوية ؟ »**[4]

ومن نعمة الله أنه إلهم بعضاً من أصفيائه التجاسر على التعبير عن هذه الناحية الأنثوية فى الطبيعة الإلهية . فكتب آنسيلم رئيس أساقفة كانتربورى[5] منذ تسعمائة سنة يقول : « **يارب يسوع الحلو ــ ألست أماً أيضا ؟**[6] **أنت الأم**

(١) ونقرأ فى رسالة آبائية : « **اولئك الذين هن فى البتولية أكرموهن ككاهنات للسيد المسيح** » عن اللاهوتى الروسى بول اقدوكيموف

(٢) المزمور الخمسون فى الأجبية (٣) مزمور ٩٤ : ٩

(٤) عن كتاب « أين النسوة ؟ » ليولين ويب (بالانجليزية) ص ٦ ــ ٧

(٥) هو بمثابة البطريرك للكنيسة الأنجليكانية (أى كنيسة انجلترا)

(٦) **وقديما ترنّم الفرعون إخناتون بمحبة إلهه إذ هتف « أنت الأب والأم لجميع مخلوقاتك »** .

لجميع الأمهات اللواتى جزن الموت فى سبيل إعطاء الحياة لأولادك » . ولقد سبق بولس الرسول هذا الكاهن الانجليزى الكبير إن يئن ويتوجّع : « يا أولادى الذين أتمخضّ بكم ... » فوضع نفسه موضع الأم التى تتلوّى فى مخاضها ، ثم حمل آنسيلم هذا الأنين الى الرب يسوع الذى فاقت آلامه كل الآلام لكى يبرز إنسانية جديدة ويستعيد لها صورة الخالق المبدع .

وفى عصرنا الحالى اتخذ بعض الآباء الروس الموقف نفسه ، **فقد لحظ كلُ من سولوڤييف وبولجاكوف من خلال حديث يشوع ابن شبراخ عن الحكمة**[1] **أنه استعملها كرمز الى السيدة العذراء . وهذا الرمز يتضمن إشارة خفية الى أن الخالق نفسه يجمع بين صفات الذكر والأنثى معا : فهو أبٌ وأمٌ فى آن واحد . وهو حين أعطى لآدم وحواء جسداً يعيشان فيه وهما على هذه الأرض هدف الى استقامة هذا الجسد والى جعله هيكلا له . ويعبّر بول اقدوكيموف عن هذا الهدف الإلهى بقوله إن الله شاء أن يجعل من الجسد شِعراً رقيقا من الحنان . لقد رأى فيه « من البدء » جسد « ابن الإنسان » فرأى بذلك عمق سر الزواج وعمق باطنية التنسّك »**[2]

٦ ــ وقبل الاسترسال فى الحديث عن بعض المواقف فى العهد الجديد نشير الى أحد الأسفار القانونية الثانية لما فيه من تقوية لعزيمة المرأة . هذا السفر هو سفر يهوديت . فكلنا قد سمعنا عن استير منذ طفولتنا ــ فهى كانت ملكة لها صولتها ، ومع ذلك فقد خافت فى بادىء الأمر وأرادت أن تعتذر عن الشفاعة أمام الملك لعلمها بجبروته . فلما هددها مردخاى قبلت طلبه . صحيح أنها عيّنت صوماً وصلاة تدعّم بهما نفسها . ومع ذلك فهى فى موقع مرموق وقد ربّاها رجل عاش فى القصر الملكى من أول السبى .

---

(١) سفر الحكمة من الأسفار القانونية الثانية ، ذلك لأن عزرا النبى كان قد جمع كل الأسفار التى كانت موجودة الى عهده ، والأسفار المشار اليها جاءت بعد موته فهى ثانية زمنيا فقط .

(٢) عن كتاب « سر المحبة » لبول اقدوكيموف (وهو روسى أيضا) ــ بالفرنسية ــ المقدمة ص ٨ ــ ٩ و ١٤

أما يهوديت فقد كانت حالتها متغايرة تماما عن حالة استير : فهى أرملة كانت قد قضت ثلاث سنوات فى ترمّلها الذى عاشته بكل حرص ودقة وفى شبه عزلة . والتشابه الوحيد بينها وبين استير هو جمالها وثروتها .

وكان قد حدث أن الملك نبوخذ نصر أرسل جيشه بقيادة أليفانا لإخضاع كل جيرانه له . فمن لم يخضع بالمسالمة أخذه بالسيف . ثم اتّجه الى غزو بنى اسرائيل المقيمين فى أرض يهوذا . وفى بادىء الأمر استعدّوا بكل إمكانيّاتهم لمواجهة جيش أشور . فأرسل إلياقيم الكاهن الى الشعب والى السامرة أيضا بأن يكونوا على أهبة الاستعداد . فأقاموا الحراس وجمعوا الموؤن ونادوا بالصوم والصلاة . ولكنّ العجيب أنهم امتلأوا خوفاً حالما رأوا أليفانا وجيشه . وقد شمل الخوف عزّيا بن ميخا رئيس شعب إسرائيل الى حد أنه عيّن للرب خمسة أيام لينقذهم خلالها .. فإن لم يستمع إليهم فى هذه الفترة سلّموا للعدو من غير حرب ولا مجاهدة !

وفى هذا المأزق برزت يهوديت . فقالت للشيخين كَبرى وكَرمى : « من أنتم حتى تجرّبوا الرب ؟ ليس هذا بكلام المستعطف الطالب الرحمة إذ قد عيّنتم أجلاً للمراحم الإلهية ! ولكن بما أن الرب طويل الروح فلنندم على هذا ونلتمس غفرانه بالدموع المسكوبة فنترجّى بالتواضع تعزيته » . وبعد أن شددت عزيمة الشيخين طلبت اليهما أن يُنهضا قلوب الشعب بكلامهما وبتذكيرهما بعظائم الله التى فعلها مع آبائهم .

وانضم عزّيا الى الشيخين وقالوا ليهوديت : « صلى عنا لأنك امرأة قديسة متّقية الله » . وعندما أخبرتهم بأنها عزمت على أمر من قِبَل الله دون أن توضّح لهما ما هو . ورجت اليهم أن يقضوا الأيام الخمسة التى كانوا قد عيّنوها فى الصلاة ليعينها الرب على تنفيذ ما فى نيّتها . فوعدوها بذلك وانصرفوا .

وحالما تركوها انصرفت هى الى الصلاة بلجاجة وختمتها بهذه الكلمات : « يا إله السماوات خالق المياه . ورب كل خليقة . استجبنى أنا المسكينة المتضرعة اليك والمتوكّله على رحمتك . واذكر يارب ميثاقك . واجعل الكلام فى فمى . وثبّت مشورة قلبى ليثبت بيتك فى قدسك . فيعرف جميع الأمم أنك أنت الإله وليس آخر سواك . »

وبعد أن استنجدت بإله السماوات والأرض نفّذت خطّتها على الفور . فتزيّنت بأحلى ثيابها ومجوهراتها ، وتعطّرت بأنفس ما عندها من عطور . ثم خرجت عند المساء هي وجاريتها وحدهما قاصدتين الى خيمة القائد أليفانا . ونجحت في اكتساب ثقته . وانتهى بها الأمر الى أنها قطعت رأسه بسيفه وهو مثقّل بالخمر ووضعته في مزود جاريتها . وعادت الاثنتان دون أن يشعر بهما أحد من حرّاس أليفانا الذين هم أيضا كانوا مثقّلين بالخمر .

وحالما اجتمعت بشعبها أرتهم رأس قائد الأشوريين . فقال لها عزيّا : « مباركة أنت يابنيّة من الرب الآله العلي فوق جميع نساء الأرض ... فإنه عظم اليوم اسمك هكذا حتى لا يبرح مدحك من أفواه الناس الذين يذكرون قوة الرب الى الأبد ، الذين لأجلهم لم تشفقي على نفسك ... »

وطاعةً لنصيحة يهوديت علّقوا رأس أليفانا على سور مدينة بيت فلوى — مدينتهم . وبالطبع شمل الفزع جيش أشور حين رأوا الرأس معلّقا . فهرب كل من استطاع النجاة بنفسه . وسقط الباقون تحت السيف .

وأمام هذا الانتصار البهيج أنشدت يهوديت نشيداً للرب : « سبحوا الرب بالدفوف . رنّموا للرب على الصنوج . أنشدوا له إنشاداً جديداً . عظّموه وادعوا باسمه ... فلنسبّح الرب تسبيحاً . ولنرنّم نشيداً جديداً لإلهنا ... »[1]

ولنقف قليلا أمام هذه المرأة : فقد أثبتت حكمتها في حديثها وفي صمتها . وكانت تعيش في ظل القدير فقد رفعت صلاتها بدموعها قبل أن تغادر بيتها . ثم رفعت صلاتها وهي واقفة داخل خيمة أليفانا حين كانت على وشك أن تقطع رأسه . فلما عادت بسلامة هي وجاريتها ، وتحقّقت من النصر رفعت صوتها بالشكر والتسبيح لله الذي أعانها .

وجدير بنا أن نلحظ أن الله اختار المرأة عدة مرات لتؤدي رسالة كبرى . **وهو له المجد قد اختار أرملة هذه المرة . فهو في تعامله مع الإنسان كثيراً ما**

---

(١) عن كتاب : « دراسة في سفر يهوديت » للقس يوسف أسعد كاهن كنيسة السيدة العذراء بالعمرانية جيزة ، طبع سنة ١٩٨٣

يتدخل ليحفظ للعدالة توازنها وسط ظلم الإنسان فمثلا حين وجد لئية مكروهة من يعقوب جعل منها أماً ليهوذا جد السيد المسيح ولاوى الذى اختير سبطه للكهنوت

وهناك حادثة لها العجب : فداود الذى قال عنه الله تعالى « وجدت داود ابن يسى رجلا حسب قلبى »[1] ـــ داود هذا احتاج الى امرأة تلطّف من حدته وتشير عليه باتباع السلام ، ولقد قال لها داود : « **مبارك عقلك . ومباركة أنت** . لأنك منعتنى اليوم من إتيان الدماء وانتقام يدى لنفسى . »[2]

اليس هذا التعامل الإلهى مع المرأة جدير بالتمعن ؟

ولقد نجحت يهوديت لأنها وجدت من القادة قبولًا لمشورتها . فقد أذهلتهم شجاعتها وسكينتها مقابل شعورهم بالعجز والخوف حتى لقد تصوروا أنها لن ترجع اليهم سالمة ! ومقابل هذا الخور كانت يهوديت واثقة من نجدة الله . فسارت بقوته فى ثقة وعزيمة . ولذلك نجحت .

على أننا حين نقرأ ترانيم النصر التى ترنّموا بها قديما نمتدحهم على عرفانهم وتهليلهم ، ولكننا فى الوقت عينه علينا أن نتجّنب الشماته بالأعداء والإلحاح على الله بإبادتهم . فهذه الشماته وهذا الإلحاح بعيدان كل البعد عن روح ذاك الذى قال لنا : « أحبوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم . وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم . »[3]

وإمكانية محبة الأعداء نراها واضحةً فى الشهداء : فمن استفانوس وعلى امتداد الاضطهادات نسمع الشهداء يصلّون لأجل معذّبيهم . **وإذ نقف مبهورين أمام هذه القمة الشاهقة نرى أيضا أن الكثيرين نجحوا فى إكتساب هؤلاء الباطشين بهم الى الإيمان بالسيد المسيح . ومن أبدع الأمثلة على هذا الواقع المذهل توبة الوالى أريانوس وإيمانه . ثم استشهاده . فهذا الوالى قد شابه شاول الطرسوسى : فكل منهما بدأ حياته مطارِداً للمسيحيين ومضطهِدهم وانتهى فى النهاية الى الاستشهاد !**[4]

(١) أعمال ١٣ : ٢٢ (٢) ١ صموائيل ٢٥ (٣) متى ٥ ٤٤

(٤) وردت سيرته فى السنكسار فى يوم ٨ برمهات

والهدف من سرد ما فعلته يهوديت هو أن نتعلم منها المداومة على الصلاة والعمل فى صمت والاستعداد للبذل حتى بالحياة . وأن ندرك أيضا أن قوة الله فى الضعف تكمل ، **وهو له المجد قد أثبت لنا مراراً وتكراراً مدى كمال قوته حين يختار « الإناء الأضعف » مبيّنا لنا أن الآنية الخزفية متى امتلأت من قوته تحوّلت الى صُلب !**

٧ ــ ولنعد الى الوراء قليلا لنقف أمام امرأة هى نموذج ضمن النماذج الوفيرة عن فعل النعمة فى عمق النفس : هذه المرأة هى **راحاب** التى يصفها الكتاب المقدس بصراحة تامة فيقول : « راحاب الزانية » فالأسفار المقدسة لكونها رسالة الله الى الإنسان تتحدث كلها بهذه الصراحة دون تنميق ودون محاولة لتخفيف أوزار من تصفهم . ألم يقل لنا متى البشير عن أم سليمان إنها « تلك التى لأوريا »[1] ليذكّرنا بخطيتها ؟ ولكن كيف يصف السفر المقدس راحاب . بعد ذلك ؟ **لقد جهرت للجاسوسيين المبعوثين من يشوع بأن « الرب إلهكم هو الله** فى السماء من فوق وعلى الأرض من تحت » . ونتيجة لإيمانها الصريح طلبت اليها أن يحلفا لها بالرب ويعطياها علامة . **وقد علمنا الآباء بأن الحلفان (أو القِسَم) هو ما قاله الله .[2] أما العلامة فهى ما صاره الله بتجسده المجيد .**

ولنتأمل رد الجاسوسيين : « نفسنا عوضكم للموت » ــ أى أنهما أعطياها ضمانا أكيداً . والواقع أن الله هو وحده الضمان الأكيد كما ينادى عليه المرنّم : « كن ضامن عبدك للخير ».[3] **إلا أنه من عجب الله فى حنانه وتواضعه أنه يعطى المؤمنين به النعمة التى تمكنهم من أن يعملوا عمله . فكما أعطى تلاميذه القوة على شفاء الأمراض وإخراج الشياطين بل وإقامة الموتى أيضا ، كذلك أعطى الرجلين اللذين رضيا بتعريض حياتهما للموت خدمةً لكل الشعب المقدرة على أن يكونوا الضمان الأكيد لراحاب .**

---

(١) متى ١ : ٦

(٢) راجع تثنية ١ : ٢٨ ، ٦ : ١ ، ٩ : ٥ ، ٢٩ : ١٣ ، ٣٠ : ٢٠ ، لوقا ١ : ٧٣ ، أعمال ٧ : ١٧

(٣) مزمور ١٩ : ١٢٢ (وهو المزمور الكبير) ولكى ندرك مدى ترابط الأسفار الإلهية نقول إن رجاء المرنّم قد ردّ عليه بولس الرسول فى رسالته الى العبرانيين ٧ : ٢١ ــ ٢٢

ولنقف أمام محبة راحاب ـــ **فهى على الرغم من حياتها الخاطئة قوية المحبة** نحو أبيها وأمها وإخوتها وإخواتها . وحين طلبت الأمان لم تطلبه لنفسها فقط بل استحلفت الجاسوسين على ضمان حياة أهل بيتها أيضا . ألا يجدر بنا أن نسائل نفوسنا عن مدى محبتنا لأهل بيتنا ؟

وقبل أن يغادر الجاسوسان مدينة أريحا أعطيا لراحاب العلامة التى ستكون وسيلة لخلاصها هى وأهل بيتها ، **وهذه العلامة هى حبل من خيوط القرمز** لتربطها فى الكوة التى أنزلتهما منها . **ألا تشير خيوط القرمز الى الدم الزكى الكريم الذى انساب فوق الصليب** ؟ ألا تبيّن لنا فاعلية هذا الدم فتؤكد لنا الضمان والأمان الكامل الذى يوهب للمؤمنين به ؟ ـــ الذين لم يغتسلوا بدم الخروف فقط بل وتذوقوا حلاوته بشربه .

ولقد نفّذت راحاب وصيتهما فربطت الحبل القرمزى فى الكوة عينها . **فها نحن أمام امرأة أممية خاطئة ومع ذلك استشفت روحها على بعد الأجيال ضرورة الفداء فنالت سريان النعمة الى داخلها . والنعمة التى نالتها لم تقتصر على تنفيذ عهد الجاسوسين بل تخطتها بما لا يقاس إذ قد رضى رب المجد بأن تكون ضمن جداته** .(١)

كذلك عملت بالوصية فى أنها جمعت فى بيتها أباها وأمها وإخوتها وسائر بيت أبيها . وهى سارعت فى هذا العمل خلال الأيام القليلة التى فصلت ما بين نجاة الجاسوسين وبين هلاك أريحا . **لقد ازدهر إيمان راحاب بقوة وسرعة . وبهذه القوة أصبح بيتها بيت الإيمان العامل** .

ويجدر بنا أن نسأل أنفسنا : أين أهل بيتى ؟ أهم فى المدينة حيث يترصّدهم الهلاك أم أنهم فى أمان البيت ؟ وهل سعينا فى أن نجتذبهم الى الداخل ؟ وخلال إجابتنا على هذه الأسئلة لنتفكّر فى محبة راحاب لبيت أبيها وفى إيمانها ، **ولنتفكّر فى أنها جازفت بحياتها حين أخفت الجاسوسين ـــ ولكنّ هذه المجازفة قد**

---

(١) متى ١ ٥

اقترنت بإدراكها أن الله هو رب السماء والأرض : فآمنت وجازفت لقوة إيمانها .

وعلى أثر هذا كله صارت أريحا مغلَقة مقفَلة . إنهم لم يكونزا يعرفون ما هتف به المرنّم بعد ذلك بأجيال : « .. إن لم يحرس الرب المدينة فباطل يسهر الحارسون ... »[1]

ومن أعجب مظاهر حنان الله على هؤلاء الأريحيين المنغلقين داخل أسوارهم أنه أمهلهم ستة أيام رأوا فيها يشوع والكهنة والشعب يدورون حول مدينتهم مرة واحدة يوميا . فزعموا فى انغلاقهم أنه استعراض حربى ! **لقد أمهلهم « القاضى العادل » هذه الفترة ليعطيهم الفرصة للتوبة ــ لأن حنانه متلازم لعدالته** . ولم يكن فى المدينة كلها من تفتّحت عيناه الداخلية غير المرأة التى كانت خاطئة ، وعن طريقها تفتّحت عيون أهل بيتها . وليس من شك فى أن قلبها امتلأ حزنا أمام سخرية مواطنيها : هذا الحزن الذى مازال يملأ قلوب المؤمنين المحبين على انغلاق القلوب ضد حنان الله ورحمته .

وحين سقطت الأسوار على أثر صوت الأبواق إيذانا بالدينونة الإلهية لم يكن فى المدينة كلها غير بيت نجا من الخراب الشامل . نجا لأن امرأة من أهل هذا البيت آمنت ونجحت فى أن يسرى إيمانها الى قلوب بيت أبيها .[2]

ومرة أخرى نرى عمل الله من خلال امرأة : إنه له المجد يريد أن يوضّح صراحة أنه رب النساء بقدر ما هو رب الرجال . وهذا التوضيح أعلنه على مدى الأسفار الإلهية منذ أن أعلن لحواء أن نسلها سيسحق رأس الحية ، **وأن هذا الساحق الغالب سيكون مولوداً من امرأة** .

فلنفرح نحن الذين منحنا الله أن نعيش بعد أن تحقق هذا الوعد الإلهى ؛ لنفرح لأن امرأة أصبحت « والدة الإله » المطوّبة من جميع الأجيال ، لنفرح

(١) مزمور ١٢٦ (فى الأجبية)

(٢) يشوع الأصحاحين ٢ و ٦

لأن الكلمة المتجسد قد أزال لعنة الناموس ومنحنا النعمة لأن نكون « بنات حواء الجديدة »[1]

ولنعلم أن فرحتنا قائمة على أساس هو الصخرة التى هى السيد المسيح . فهو له المجد حين تحدث الى تلاميذه حديث المحبة والرحمة والرعاية وعدهم بأن يرسل لهم الروح المعزى . ولحرص كنيستنا على هذا الحديث أطلقت عليه اسم « أصحاحات البراقليط » وجعلته ضمن قراءات يوم خميس العهد مساءً (أو ليلة الجمعة العظيمة) . وقد تم هذا الوعد الإلهى العظيم فى يوم العنصرة حين سكب من روحه « على عبيده وعلى إمائه » . والهدف من تسجيل هذا كله هو الوصول الى ما يقوله الأنبا غريغوريوس عن أن الروح القدس حين يحل داخل النفس الإنسانية لا يفارقها : فسرّ حلوله « سر لا ينحل بطبعه لأنه يطبع فى النفس سمةً لا تنحل . وهذا تعبير القديس كليمندس الاسكندرى وتعبير الآباء الرسل وآباء الكنيسة . ولهذا لا يعاد الميرون ولا تعاد المعمودية ... لأنها تطبع فى النفس سمةً لا تُمحى . وانما يمكن أن يضعف أثره فى حياة الانسان كمن هو مريض أو فى غيبوبة ... »[2]

فمن هذا التعليم ندرك أن المرأة التى حل فى داخلها الروح القدس بسرّ الميرون المقدس بعد أن رفعها الكاهن من جرن المعمودية ستظل حافظة لسمَة هذا السر العظيم مادامت تعيش بخوف الله وتسعى الى تنفيذ وصاياه . فمادام الروح القدس ملازمها فهى قد تقدست روحاً ونفساً وجسداً . وبالتالى لم يعد فى الإمكان الزعم بأنها « نجسته » فى أى يوم من أيام حياتها . إنها أصبحت خليقة جديدة بالفداء الذى ترسّخه الكنيسة فيها بالمعمودية والميرون والافخارستيا والتوبة المتجددة باستمرار . أبعد هذا لا يحق لها أن تفرح وتتهلل وتمتلىء نشوة بأنها « بنت حواء الجديدة » ؟ هذه الفرحة التى هى منحة إلهية اكتسبت بها دالة البنّوة نحو الآب السماوى .

---

(١) كم هو جدير بنا أن نتمعن ما كتبه البابا وال العظيمان الأنبا أثناسيوس الرسولى والأنبا كيرلس عامود الدين لندرك الى أى حد صرّحا بأن لعنة حواء قد صارت بركة فى حواء الجديدة .

(٢) من كتابه « دعوا الروح يملأكم » ص ٤١ ــ ٤٢ طبعته لجنه النشر للثقافة القبطية والأرثوذكسية مارس سنة ١٩٨٢ .

٨ ــ وهناك امرأة أخرى لها مكانة خاصة ضمن طقوسنا الكنسية مع أننا لا نسمع عنها إلا مرة فى السنة ! هذه المرأة هى سوسنة العفيفة . والسيرة العطرة التى لهذه المرأة المتّقية الله قد ثبتّها الآباء ضمن صلوات ليلة « أبوغالمسيس » ــ فى السهرة البديعة التى يقضيها الأحبة ليلة سبت النور عائشين بالروح عند قبر الفادى المدفون . وأعجب ما فى طقوس كنيستنا المحبوبة **أن الآباء قد عرفوا كيف يمزجون الحزن بالفرح والفرح بالحزن** . ففى سهرة سبت النور يترنّم المجتمعون بجميع التسبيحات التى وردت فى العهدين القديم والجديد ؛[1] ويقرأون سفرىّ المزامير والرؤيا بأكملهما . وهذه التسابيح هى ترانيم الفرح يترنّمون بها أمام القبر الذى مازال يضم جسد الفادى الحبيب ! وتتداخل مع هذه التسبيحات فصولٌ مختارة من الأسفار المقدسة : من بينها سيرة سوسنة العفيفة .

وإنه لجديرٌ بنا حقاً أن نقف بين الحينَ والحين لنتأمل هذه المرأة التى تاهت سيرتها . وذلك لأنها هى أيضا رمز واقعىّ ضمن الرموز التى وردت فى العهد القديم عن السيد المسيح .

وقصة سوسنة تتلخّص فى أنها كانت من بنات سبط يهوذا . وكانت على غاية من الجمال . وكان زوجها يواقيم غنياً جداً . إلا أن الأهم والأسمى من جمالها وغناها هو أنها كانت متّقيةً الله حافظةً لوصاياه .

ولأن يواقيم كان أوجه اليهود الساكنين فى بابل فقد اعتادوا أن يجتمعوا فى الحديقة الفسيحة المحيطة بداره . وكانوا قد أقاموا من بينهم شيخيْن ليقضيا فى أمورهم . وهذان الشيخان صدق فيهما القول : « إن الإثم قد صدر من شيوخ

---

(١) وهذه التسابيح هى : تسبيحتا موسى النبى ــ خروج ١٥ : ١ ــ ٢١ ، تثنية ٣٢ : ١ ــ ٤٤ ؛ تسبحة حنة أم صموائيل ؛ تسبحة الملك حزقيا ــ أشعياء ٣٨ : ١٠ ــ ٢٠ ؛ تسبحة الملك منسّى ابن حزقيا ــ وهذه التسبحة مأخوذة عن المزامير ومسجّلة فى كتب الكنيسة ؛ صلاة يونان النبى وهو فى بطن الحوت ؛ الأصحاح الثالث من سفر حبقوق ؛ ثلاث تسبيحات لأشعياء ــ أصحاحات ١٥ ، ١٦ : ١ ــ ٩ ، ٢٦ : ١٠ ــ ٢٩ ؛ الأصحاح الثالث من سفر دانيال تتبعه تسبحة الفتية الثلاثة فى أتون النار ؛ تسبحة السيدة العذراء ــ لوقا ١ : ٤٦ ــ ٥٥ ؛ تسبحة زكريا والد المعمدان ــ لوقا ١ : ٦٨ ــ ٨٥ ؛ طراحة سمعان الشيخ لوقا ٢ : ٢٩ ــ ٣٣

قضاة يُحسبون مدبّرى الشعب » . وكان الشيخان يترددان على دار يواقيم فيأتيهما كل ذى دعوة . وبعد أن ينصرف الجميع عند الظهر تدخل سوسنة حديقتها وتتمشى فيها . ولاحظها الشيخان . ومع كونهما شيخيْن وقاضييْن أسلما عقليْهما للشر . فتعلّق قلباهما بسوسنة . وفكّر كلٌ منهما فى أن يوقع بها . وكتم الواحد هواه عن الآخر خجلًا من الشر الذى فى نفسه .

وحدث ذات يوم أنهما بعد انصرافهما عادا فالتقيا على غير موعد عند حديقة يواقيم . وعندها اعترفا لبعضهما بما فى خبيئة نفسيْهما . واتفقا على تحيّن فرصة يتمكّنان فيها من إسقاط سوسنة فى حبائلهما . وبالفعل واتتهما هذه الفرصة . ولكن سوسنة رفضت الخضوع لرغبتهما .(١) فهدداها بأنهما سيّتهمانها بالخيانة الزوجية . « فتنهدت سوسنة وقالت لقد ضاق بى الأمر من كل جهة . فإنى إن فعلت هذا فهو لى موت . وإن لم أفعل فلا أنجو من أيديكما . ولكن خير لى أن لا أفعل ثم أقع فى أيديكما من أن أخطىء أمام الرب » . ولم يتورّع الشيخان عن اتهام سوسنة أمام زوجها ووالديْها وأولادها ، بل أمام الجمع الذى حضر على أثر صراخها . ولما كان لا يوجد شاهدٌ إطلاقا ، ولما كان الشيخان قاضييْن فقد صدقهما الجميع وصدر الحكم بقتل سوسنة .

فصرخت سوسنة بصوت عظيم وقالت : « أيها الإله الأزلى البصير بالخفايا العالم بكل شىء قبل أن يكون . إنك تعلم أنهما إنما شهدا علىّ زوراً . وها أنا أموت ولم أصنع شيئا مما افتراه علىّ هذان » . ولقد استجاب الرب لصلاتها . فبينما هى مُساقة الى **الموت نبّه روح الله دانيال الى الواقع . فأوقف مسيرة الذاهبين الى ساحة الإعدام** . وأجرى تحقيقا أثبت به براءة سوسنة وفساد

---

(١) نسمع الكثير فى الكتب وفى الوعظ عن يوسف العفيف (تكوين ٣٩ : ٩) ونبرز خلالها بعنف الخطية التى أرادها زوجة سيده . فلماذا إذن لا نبرز تمسّك سوسنة بعفتها — مع أنها بهذا التمسك تعرّضت للموت والعار ولفضيحة زوجها وكل أهل بيتها ؟ ولماذا لا نلوم الرجلين — الشيخيْن القاضييْن — اللذين استهدفا إسقاطها والافتراء عليها ؟ بل لقد عرّضوها لموتٍ مشين لو لم تتباركها المراحم الإلهية .

الشيخين . فعادت مكرّمة موضوعة الرأس بينما نُفّذ حكم الإعدام فى الشيخين .[1]

وبما أنها كانت مُساقة الى قتل مشوب بالعار ، وبما أنها عادت حية موفورة الكرامة ، فقد صارت رمزاً للسيد المسيح كإسحق بالضبط . فرب المجد يبيّن لنا من خلال هذين الرمزين مدى حنانه على خليقته : الأنثى والذكر اللذين خلقهما من البدء على صورته ومثاله . وتمشيّا مع هذا الحنان الإلهى رتّب الآباء قراءة قصة سوسنة العفيفة فى سهرة سبت النور كما رتّبوا صلاة القسمة الخاصة بذبح إسحق فى قداس خميس العهد .

٩ ــ بعد كل هذه التوجيهات الإلهية المعطاه لنا فى الكتاب المقدس ألا يجدر بنا أن نذكر بان إله إبراهيم وإسحق ويعقوب هو بعينه إله سارة ورفقة وليئة وراحيل ؟ وهن أيضا كن آنية لتحقيق المواعيد الإلهية . ومن البديهيات أن نقول إن سارة هى أم إسحق كما كان إبراهيم أباه . بل إن بولس الرسول يشير اليه بوصفه « **ابن الحره** » **فينسبه بذلك الى أمه ويمتد بهذا الانتساب الينا جميعا بقوله : « إذن أيها الأخوة نحن أولاد الحرة »**[2] . ثم ألم يتناسل ملك الملوك من ليئه ؟ وعندما قتل هيرودس أطفال بيت لحم تذكّر البشير قول النبى : « صوت سُمع فى الرامة . نوحٌ وبكاء وعويل . راحيل تبكى على أولادها ولا تريد أن تتعزّى لأنهم ليسوا بموجودين» . فكما رآها النبى بعين الوحى تبكى عى سبى بنى إسرائيل الى بابل هكذا رآها البشير تبكى على قتل الأبرياء[3] . على أن هذه الأم الباكية قد فرحت بولادة يوسف فهتفت : « قد نزع الله عارى ــ يزيدنى الرب ابناً ثانيا . ويوسف مازال أثره باقيا الى اليوم ــ فهلّا ذكرنا أمه ؟

ولو أننا تمعنّا الأسفار الإلهية لوجدنا أن الزوجة فى العهد القديم نودى عليها أن تكون قوية مع توصيتها بالطاعة ؛ وفيّة كل الوفاء ؛ متفننّة فى هدوء : هذه وغيرها من الصفات المتضاربة نجدها فى الأصحاح الأخير من سفر الأمثال . فهذا

(١) انظر الهامش على ص ١٣ ، راجع كتاب « الأسفار القانونية الثانية » أصدرته كنيسة السيدة العذراء بالفجالة تحت إشراف القمص متياس فهيد سنة ١٩٨٢ ، ص ١٩٨ ــ ٢٠٢

(٢) غلاطية ٤ : ٣٠ ــ ٣١ (٣) أرميا ٣١ : ١٥ ، متى ٢ : ١٨

(٤) تكوين ٣٠ : ٢٤ ، وهذه ليست سوى أمثلة قليلة لها شبيهاتها فى مختلف الأسفار

الأصحاح يبدأ بتسجيل ما تلقّنه الملك لموئيل ملك مسّا عن أمه . ثم من الآية العاشرة يترنّم بالمرأة الفاضلة وينتهى بالكلمات : « المرأة المتقّية الرب تُمدح . أعطوها من ثمر يديها . وتمدحها أعمالها فى الأبواب . »

١٠ ــ وبعد أن تمشينا مع بعض ما جاء فى العهد القديم نصل الى عهد النعمة : نعمة الحرية التى منحنا إياها فادينا الحبيب . **وبوصولنا نقف لنتأمل أعجوبة تميّزت بصفة خاصة هي الآية المتعلقة بإبراء السيد المسيح للمرأة نازفة الدم** . فلنلحظ أن رب المجد كان يوصى كل من يشفيهم بأن لا يقولوا لأحد عما حدث لهم وأن يذهبوا ليُروا أنفسهم للكهنة ، وذلك لكى يقدموا التطهير اللازم تبعاً لناموس موسى وليحصلوا على شهادة من الكهنة بشفائهم . أما فى هذه المرة فقد جاءت المرأة من ورائه ، وفى وسط الجمع المتزاحم حوله ، ظناً منها أنها ستختفى . وهذه البائسة لم تكن مريضة فقط ، بل كانت فى حكم الناموس الموسوى نجسة . وفى حالتها النفسية المضطربة زعمت أنها لن « تدنّس » المعلم بلمسها طرف ثوبه ، وبهذه اللمسة الخاطفة تبرأ فى صمت .

ووسط كل عوامل الخفاء توقّف رب المجد عن سيره ليسأل : « من الذى لمسنى ؟ » **وحتى حين احتجّ التلاميذ بزحمة الجمع أصرّ على إبراز تلك التى لمسته** . ويقول لنا البشير إنها جاءت وهى خائفة ومرتعدة وقالت له الحق كله على مسمَع من الجمع الحاشد . **فلماذا اتخذ رب المجد مع هذه المرأة خطةً مغايرة لموقفه مع جميع الذين شفاهم بلا استثناء ؟** يجيب أحد الآباء على هذا السؤال بقوله إن ربنا هدف الى إبراز قوة إيمان المرأة ثم الى تعريف الناس بأن قوة تخرج منه فى كل من أبرأهم .

ومع تقبّلنا لهذه الإجابة ، ومع حرصنا على الأخذ بتعاليم الآباء ، نقف لنتفرّس فى الظروف التى تمّت فيها هذه الآية . فلقد أكد علينا الآباء بوجوب الربط بين الأسفار الإلهية . وعن طريق هذا الربط نجد أن السيد المسيح كان فى طريقه الى نجدة ابنة يايرس رئيس المجمع قبل أن تموت . وخلال هذا التوقف لإبراء تلك التى كانت نازفة وبرئت وصل الخبر بأن البنت المريضة قد ماتت . فلم يَعُد من داع

لأن يُتعب المعلم نفسه بالذهاب اليها . **ولكن المعلم شدد قلب الأب المفزوع بقوله : « آمن فقط ... » ثم ذهب وأقام البنت الميّتة**[1]

كلنا يعرف هاتين المعجزتين ولكننا نهدف هنا الى الربط بينهما وتمعّنهما معاً . فالمرأة المسكينة قد نشأت تحت قسوة الناموس الموسوى الذى حكم عليها بأنها نجسة ــ بل وإنها تنجّس كل من يلمسها ! فهى متلهّفة على الشفاء ، وهى فى الوقت عينه مرتعبة من تنجيس المعلم الصالح الذى تعرف أن عنده الدواء . ووسط انفعالاتها المتضاربة اهتدت الى أن خير وسيلة هى أن تلمس هدب ثوبه من خلف ووسط الزحام فلا يراها أحد ولا تنجّس شافيها . **ولما نجحت فرحت بأنها برئت فى خفية . ولكن ياللهول ! فقد نادى عليها وأصّر بأن تسرد قصتها أمام الجميع . ولما انتهت اكتفى ذلك الذى هو المحبة الكامله بأن يقول لها : « إيمانك قد شفاك » ولم يطالبها بالتطهير الموسوى .**

فإذا ما ربطنا بين اصرار الرب على إبرازها وبين تشجيعه للأب الذى امتلأ فزعاً ثم إقامته لابنته من الموت أمكننا أن نقول **إنه استهدف أولًا إقامة الفكر الإنسانى من موت الزعم بنجاسة مخلوق صنعه على صورته ومثاله**[2] ؛ واستهدف ثانيا إقامة جسم ميت . **فهو رب الحياة الروحية والفكرية بالضبط كما أنه رب الحياة الجسمية** . وإلا فلماذا حتّم على المرأة أن تخرج من وسط الجمع لتقول له الحق كله ؟ ولماذا لم يوصيها بالتطهير الذى أمر به موسى ؟

وإننا لنجد توضيحاً بديعا لهذا الذى جرى لنازفة الدم فى ما يصاحب لمسات الميرون من كلماتٍ هى : « مختوم بموهبة الروح القدس » ، وفى الضراعة : « يا الله اختمهم بختم الميرون المقدس ليحملوا السيد المسيح فى قلوبهم ويجعلوا من هذه القلوب مسكناً للثالوث الأقدس » . **فالانسان المختوم بالروح القدس الذى صار حاملًا للسيد المسيح يصبح هيكلا مقدساً مليئا بالثالوث الأقدس .** »

---

(١) مرقس ٥ : ٣٥ : ٤٣ ، لوقا ٨ : ٤٣ ــ ٥٩ ، متى ٩ : ١٨ ــ ٢٦

(٢) ويجدر بنا هنا أن نذكر أن الله أكد لبطرس هذا الوضع الجديد حين ناداه من علو سماه بأنه حتى فى الحيوان لم يعد شىء نجساً لأن « ما طهّره الله لا تدنّسه أنت » ، وكرر هذا القول ثلاث مرات ــ أعمال ١٠ : ٩ ــ ١٦ . فإن كان الحيوان قد أصبح طاهراً فهل من المعقول أن يوضَع إنسان موضع النجاسة ؟ هذا الإنسان الذى أصبح خليقة جديدة فى السيد المسيح ونال نعمة التبنّى ؟

١١ ــ ونعود من هذا التأمل لنعاود التأمل فى بعض ماجاء فى أسفار العهد القديم عن الحكمة الإلهية الخفية وراء خلقة الإنسان ، فنسمع المرتّل وهو يتغنّى فى عجب : « لأنك قد اقتنيت كليتى . نسجتنى فى بطن أمى . أحمدك من أجل أنك صنعتنى عجيبا مهيبا »[١] ... عجيبة هى أعمالك . ونفسى تعرف ذلك يقينا . لم تختفى عنك عظامى حينما صُنعتُ فى الخفاء ورُقّمتُ فى أعماق الأرض . رأت عيناك أعضائى . وفى سفرك كلها كُتبتْ يوم أن تصوّرتْ إذ لم يكن واحد منها . ما أكرم أفكارك يارب عندى . ما أكثر جملتها . » وبهذه الآيات يترنّم المرتل بتكوين الجنين داخل بطن أمه ويعلن تعجبه من مجد الله .

أما أرميا فيهتف فى تهليل : « فكانت كلمة الرب الىّ قائلا : قبلما صورتك فى البطن عرفتك . وقبل ما خرجتَ من الرَحِم قدستك . » وبعد هذا الهتاف المتهلل يتذكّر آلام الأم فيقول : « لأنى سمعت صوتا كما خضة ضيقاً مثل ضيق بكرية . » ويتردد هذا التذكّر وهو يعاتب شعب يهوذا : « أما تأخذك الأوجاع كامرأة ماخض ؟ » ثم يتكرر عتابه ولكن فى إشفاق : « أيتها الساكنة فى لبنان المعششة فى الأرز كم يُشفَق عليك عند إتيان المخاض عليك الوجع كوالدة . » وبعدها حين يتأمل قومه فى السبى ، فى آلام مريرة لوقوعهم تحت الغضب الإلهى ، يتساءل : « اسألوا وانظروا إن كان ذَكَرَ يضع . لماذا أرى كل رجل ويداه على حقويه كماخض ... »[٢]

وحينما يبكى أشعياء بدوره على شعبه لا يجد أمامه صورةً للألم غير آلام الأم ، فيقول : « كما أن الحبلى التى تقارب الولادة تتلوّى وتصرخ فى مخاضها هكذا كنا قدامك . حبلنا . تلوّينا كأننا ولدنا ريحا . »[٣]

والهدف من العودة الى هذه الآيات هو التأمل فى خشوع . فقد أصبح الإنسان معتاداً عملية الولادة فلم يَعُد يأبه لها ــ اللهم إلا متى كان هو الأب . ولكننا نقرأ عن الإنسان البدائى أنه كان يعبد المرأة الحامل ! كان يعبدها لأنه

(١) مزمور ١٣٩ : ١٣ ــ ١٧ ، وقد وردت الآية ١٤ فى الكتاب المقدس المتداول : « أحمدك من أجل أنى قد امتزت عجبا ».

(٢) أرميا ١ : ٤ ــ ٥ و ٤ : ٣١ و ١٣ : ٢١ و ٢٢ : ٢٣ و ٣٠ : ٦

(٣) أشعياء ٢٦ : ١٧ ــ ١٨

كان يرى فيها سراً عجيبا لا يستطيع إدراكه : هو سر الحياة المنبعثة من داخل المرأة الحامل . فلما حلّل العلم العمليات الطبيعية الى مجرد تفاعل بين الخلايا أفقد الإنسان شعوره بالرهبة أمام ما يجريه الله « فى الخفاء » ! على أن صلتنا بالله تدفعنا الى التأمل ــ ولو من حين الى آخر ــ فى عجب الله . ونحن كثيراً ما نقول : « عجائب الله فى قديسيه » ، وهى بالفعل فى قديسيه . **إلا أن عجائبه تبدأ « من البدء » قبل أن يبرز القديس الى الوجود . وهذه العجائب تتابع** الانسان وهو فى الرَحِم ، وعند خروجه منه ، وعلى امتداد حياته . ومن له عينان للنظر فلينظر .

وبالتأمل الخاشع نصل الى دور الأم فى المجتمع : الأم فى مجتمع الشعوب .

١٢ ــ وأكبر مشجّع لنا فى هذا التأمل الخاشع الأنبا كيرلس الأول عامود الدين[1]، فهو الذى أوضح للآباء المائتين المجتمعين بمجمع أفسس كيفية اتحاد اللاهوت بالناسوت اتحاداً بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. ولنقف هنا لنتمعّن هذا التوضيح : فلقد اتخذه البابا الكبير من اتحاد النار بالحديد ساعة أن يريد الحداد صياغة الحديد . فكلاهما متّحدان ولكنّ النار لا تختلط ولا تمتزج ولا تتغير عن طبيعتها مع كونها متحدة بالحديد . وهذا ما يحدث للحديد بالضبط . فكل منهما غير قابل للاختلاط والامتزاج مع الآخر لطبيعته الخاصة وحين يطرق الحداد الحديد ليصوغه يقع الضرب عليه وحده لأن النار بطبيعتها تعلو على الطَرْق . وهكذا نستطيع تشبيه اتحاد اللاهوت بالناسوت : فالطبيعتان متحدتان ــ ومع اتحادهما لا يختلط ولا يمتزج ولا يتغيّر أحدهما . وحين ضربوا السيد المسيح وجلدوه ووضعوا اكليل الشوك على رأسه ودقوا يديه ورجليه بالمسامير كان اللاهوت متحداً بالناسوت ، ومع ذلك فكل هذا الضرب وقع على ناسوته لأن اللاهوت يعلو فوق هذه العذابات . وليس ذلك فقط بل إن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين : فلازمه فى القبر وفى القيامة وفى الصعود . فالناسوت الذى صعد به

(١) هو البابا الاسكندرى الرابع والعشرون ــ سنة ٤٠٤ ، سنة ٤٣٥ م ، أما المجمع الذى رأسه فهو مجمع أفسس : المجمع المسكونى الثالث الذى انعقد سنة ٤٣١ بناءً على دعوة الامبراطور ثيودوسيوس الصغير (أو الثانى)

رب المجد هو ناسوتنا ولهذا يقول لنا الرسول : « وأصعدنا معه وأجلسنا معه فى السماويات »[1] ، لأن فادينا الحبيب حمل الإنسانية بأسرها من بدايتها والى الانقضاء فى جسده الذى صعد به .

واستكمل عامود الدين توضيحه هذا بتعليمه أن اللقب الطقسى اللاهوتى للسيدة العذراء هو « ثيئوتوكس » (أى والدة الإله) . ولهذا وضع للكنيسة الجامعة مقدمة قانون الإيمان ، ومطلعه : « نعظمك يا أم النور الحقيقى ونمجدك أيتها العذراء القديسة مريم والدة الإله ... » ويتجاوب صدى هذه الكلمات فى إحدى الثيئوتوكيات[2] التى يوجهها البابا الكبير نفسه الى السيدة العذراء قائلا : « أمسك بثدييك وأرضعته اللبن وهو إلهنا ومخلص الكل . »

ولم يكتفِ عامود الدين بتوضيح الروحيات العميقة بل شمل المرأة بعنايته إذ أبرز فعل النعمة الذى نالته بسبب تجسّد ابن الله من العذراء القديسة فيقول : « **واللعنة القديمة التى وقعت على المرأة قد أُزيلت فى الأم الجديدة التى من قِبَل ثمرة بطنها أدرك جنسنا كله الخلاص** . » ويبيّن بجلاء زوال اللعنة القديمة بإعلانه : « **فما دام البطن الذى كان محكوماً عليه الولادة فى وجع قد أصبح منتسباً الى ينبوع الحياة (أى عدم الموت) فقد تحرر من العقاب الذى وقع على حواء** . » ألا نسمع خلف هذه الكلمات قول رب المجد : من له أذنان للسمع فليسمع ؟ ولنذكر أيضا أن الحكم الذى أصدره على المرأة ساعة الولادة قد أصدره على نفسه ساعة الفداء ! ألم يتألم وينزف من قمة رأسه الى أخمص قدميه ؟ وآلامه تجاوزت كل الآلام الإنسانية بأسرها إذ نقرأ أنه ــ له المجد ــ وهو بعد فى بستان جسثيمانى وقبل أن يلقوا عليه الأيادى « صار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض . »[3] وقد شاء هذه الآلام ليخلق الخليقة الجديدة . فاللعنة القديمة تحوّلت

---

(١) أفسس ٢ : ٦

(٢) « ثيئوتوكيا » هى تسبحة للثيئوتوكس ، وبما أن شهر كيهك المبارك ينتهى بعيد الميلاد المجيد ، فالمؤمنون بالكلمة المتجسد من بنى مصر يترنّمون بتسبيح والدته فى ليالى الآحاد منه بسبع ثيئوتوكيات : واحدة عن كل يوم من أيام الأسبوع .

(٣) لوقا ٢٢ : ٤٤

به الى بركة . لأن فادينا الحبيب ليس عنده محاباة ، فحين فاض بنعمته على أمه انسابت هذه النعمة على كل أم . وما علينا إلا أن نتمعّن الأمهات ساعة القداس الإلهى لنرى أنهن يحملن الرضعان على أذرعتهن ويمسكن بأيدى الأكبر سنّا وبتأمله هامّة الأمهات هتف أحد الكهنة : « **مباركة هى الأم — أنها تغسل الأيدى القذرة ، وتصلح الجوارب المقطّعة ، وهى فى الوقت عينه ترفع الأعين نحو السماء .** »

١٣ — والأم أيضا لها تأملاتها ، ومن أبدع هذه التأملات ما قالته السيدة تيريزا بورسيلى (من أوروجواى بأمريكا الجنوبية) وهو : « **الحياة فى ملئها** » : إننا هنا جميعنا حجّاج ، آتيات من خارج السنين ، بل من خارج القرون ، ولقد مررنا كلنا بشفاء التفرقة ؛ وبتجاهل بعضنا بعضا ؛ وبالمجادلات العقيمة ؛ وبعدم الثقة ؛ وأخيراً بالمواجهة . ومع هذا كله فنحن « الكنيسة » : الشعب الذى اجتمع ذلك اليوم فى العلية فى أورشليم يوم العنصرة — الشعب الذى بعثره الروح القدس فى أنحاء العالم الأربع . وهذا الشعب يجوز آلاماً شبيهة بآلام المخاض ، إلا أنها للأسف آلام الكراهية والعنف والتقاتل .

وهناك. فى سكون الليل . نسمع الملاك يهتف : « لقد أتت الساعة ! »

إنه هتاف الأنبياء الآتى إلينا من وراء الأجيال .

على أننا يجب أن نذكر أنه متى أتت الساعة فليس هناك إنذارٌ . ولا إمكانيةٌ للشهادة . ولا فرصة للتوبة . ولا حتى لصرخة شاهقة . لأن الساعة قد أتت .

السكون شامل عميق . ملىء بالخوف والتوقّع . ولكنه ملىء أيضا بالايمان الراسخ . الإيمان الذى يملىء قلوب « البقية » المملوكة من السيد المسيح . وحين تأتى الساعة تنتهى النبوّات — فهى ساعة « الأبوكاليبس » .[1]

---

(١) هى الكلمة التى نقولها بالعربية « أبوغالمسيس » ، وهى الأسم لسفر الرؤيا بمختلف اللغات . فهى تستعمل كثيراً فى الإشارة الى نهاية العالم الحاضر وبداية الحياة فى الدهر الآتى .

إذن فليس أمامنا غير شيء واحد . واحد فقط . هو ذاك الذى كان من البدء : إنه تجديدٌ لعهد المحبة التى فى المسيح يسوع .

إها الساعة الحاسمة . ساعة الولادة . ساعة الميلاد المجيد .

وكنيسة رب الحياة لا تستطيع إلا أن تعطى الحياة .

وبإعطائها الحياة تلد .

والتنّين قوى كبير ذو سلطانٍ . ومع ذلك فأرجله من طين ![1]

والحياة تريد أن تبرز الى الوجود . وهى تجاهد لكى تبرز — لانها مهدَّدة . مطاردة . مكمَّمة . يضطهدها التنين ذو الأرجل التى من طين .

والمكان الوحيد الذى تستطيع أن تبرز فيه الحياة هو الصحراء

الصحراء التى لا طريق مخطَّط فيها غير « الطريق »

الطريق . والسحابة . والنار .

هناك فى الصحراء : فى وحدتها وفى عزلتها —

فى اليوم الأول الذى عرف فيه الإنسان محبة الله .

هناك فى الصحراء . فى الضيق يوماً بعد يوم . فى قيود السلاسل .

ستلد الكنيسة إبنا هو حياة العالم .

إنه وحده القادر على أن يغلب التنين

وفى السماء ترنّ أبواق التهليل !

١٤ — ولنصغ الآن الى سيدة من الكاميرون (بأفريقيا) اسمها جريس إنييمى ، وهى تتحدث عن « **الحجارة الحية** »[2] : إن صورة الحجارة الحية تستثير صوراً مختلفة تبعاً للأوساط المتباينة التى نعيش فيها . لذلك سأتكلم تبعاً لبيئتى .

---

(١) إشارة الى ماجاء فى رؤيا ١٢ (٢) ١ بطرس ٢ : ٤ — ٥

إننى إنتمى الى جماعة تعيش فى منطقةٍ تحيط بها الغابات فى الجنوب الغربى من الكاميرون . ونحن نقسّم الحجارة الى قسمين : الحية والميتة : فالميتة هى تلك الغائرة فى أعماق النهر أو المنغرسة وسط الصخور . أما الحجارة الحية فهى المستعملة والتى يمكن نقلها واستخدامها ، وأهمها الحجر الثلاثى الأجزاء .

وحينما يتزوّج شاب ، فمن الاحتفالات التى « تطعم » العروس ضمن عائلتها الجديدة الاحتفال بإرساء الحجر الثلاثى . وأول حجر منها يُرسيه العروسان معاً رمزاً الى الوحدة التى جمعتهما . والحجر الثانى ترسيه العروس وأكبر سيدات العائلة الجديدة : إشارةً الى تقبّلها كعضو منهم والى اندماجها فى مجتمع القرية التى ستعيش بينه . وهذا الأرساء يتضمّن الإشارة أيضا الى مشاركة العروس مشاركةً عملية فى أمور العائلة التى أصبحت عضواً منها والى تبادل الاحترام والتفاهم بينها وبينهم .

أما الحجر الثالث فترسيه العروس وأشبينتها رمزاً الى إقامة جسر من التفاهم بين العائلتيْن . وبهذا الحجر الثالث تعلن عائلة العروس تضامنها مع عائلة العريس فى السرّاء والضرّاء

وكما أنه بالحجر الثلاثى تتضامن العروس وعائلتها مع العريس وعائلته هكذا **السيد المسيح الحجر الحى : حجر الزاوية يبنى كل شخص مسيحى داخل عائلة الله . وهذه العائلة تعلو على الحدود الجغرافية والجنس واللون . إنها تشمل العالم كله . وعلى مدى أجياله . والى الانقضاء . والروح القدس هو الذى يربط بين كل أعضائها .**

ونحن فى أشد الحاجة الى النور . ولكنّ هذا النور يجب أن يشرق علينا والشفاء فى أجنحته[1] . فنحن النسوة قد عشنا أجيالًا لقّنونا فيها أننا « أتباع » وبالتالى يجب أن نكون « ملائكة صغاراً » . لا غير ! والسيد المسيح وحده هو الذى يؤكد لنا شخصيّتنا : إنه المعلم الوحيد الذى لم يبعد المرأة عن التتلمذ له . وكما

---

(١) هتف ملاخى النبى (٤ : ٢) : « ولكم أيها المتقون اسمى تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها » مستعيراً هذا الرمز من مصر الفرعونية .

أنه سمح لسوسنة ليوانا وللمجدلية أن يخدمنه كذلك منحنا الحق والميزة لأن نعمل معه . **ومادام هو حجر الزاوية الحى فارتباطنا به يجعل منا حجارة حية** . ولكى نكون بالفعل حجارة حية علينا أن نتحرك ونتنقل . وأن نكون دوماً مستعدات للخدمة . فنحن مُنادَى علينا لأن نكون حجارة حية ، بل أن نكون فوق ذلك أعمدةً للكنيسة : الكنيسة التى هى فى صراع مستمرّ ضد قوى الشر لهذا فأنا على يقين من أن النصر على هذا القوى كامن فى داخلنا . ويمكننا أن نقول بكل تواضع وخشوع أن المرأة المرفوضة من المجتمع (فى فكره الموروث) هى الحجر الأساسى للكنائس .

إذن فالصراع لاستمرار أنتصار كنيسة السيد المسيح ملقى علينا نحن النسوة . ولدينا إمكانيات عظمى مازلنا نجهلها . فليس هناك رجل عظيم لم يمّر تحت رعاية امرأة من المهد الى اللحد . ولقد غرس الله فى عمق المرأة منحة التفهّم الباطنى وتلقائية العمل . ولهذا السبب عينه اختار السيد المسيح النسوة ليكنّ أولى المبشرات به : « فالمجدلية حملت أذهل بشارة حين سارعت لتخبر الرسل بالقيامة المجيدة . وحين قال لها : « إذهبى وأعلمى إخوتى » قالها لنا بالمثل .

ومعرفة السيد المسيح ليست نظرية . إنها اختبار شخصى . وعلينا أن نتخذ من هذا الاختبار الأساسى لكياننا . ولن يمكننا أن نتفهّم قيمتنا الشخصية وكرامتنا ومسئوليتنا نحو الكنيسة والمجتمع بغير هذا الاختبار الأساسى : أى أن يحيا المسيح فينا .

وكما أن العروس تؤلف جسراً بين عائلتها وعائلة زوجها هكذا ينبغى علينا نحن المسيحيين أن نكون جسراً بين العالم وبين الله .

وأهم ما تتميّز به الحجارة المستعملة فى البناء هى قوتها على المقاومة . فهى تقاوم الحرارة الشديدة والمطر والثلج والرياح العاتية ـــ أي أنها سيدة على كل هذه العوامل .

والسيد المسيح فى توجيهاته عن ثمن التلمذة يذكّرنا بأن ننسى أنفسنا ونستعد

لمقابلة كل مايأتى علينا .[1] وبولس الرسول يقدّم كشفاً عجيباً عن كل ما قاساه فى سبيل الخدمة .[2] وفى كل خطر وكل ضيق ثبتت خدمته ونجحت .

ونحن ــ معشرة النسوة ــ المتحركات فى عالم يتغيّر سريعاً ، كيف نرى أنفسنا فى الخدمة ؟ والى أى مدى نحن مستعدات لأن نسير مع السيد المسيح ؟ أنحن متهيئات لأن نقبل الإهانة والتعليقات الجارحة حتى من أصدقائنا ومن بعض المسئولين فى الكنيسة ؟ أنحن على أهبة لأن يُساء فهمنا حتى ونحن سائرات فى الطريق الصح ؟ ثم هل نحن مستعدات لأن نقضى ليلنا فى الأرق بل وفى الدموع تحت ضغط تفكيرنا فيما يعانيه أخواتنا وإخوتنا ؟

إننا بوصفنا حجارة حية يجب أن نقاوم مستمداتٍ القوة من الروح القدس ، ومتطلعاتٍ نحو السيد المسيح رجائنا ومحرّرنا وقائدنا على الطريق . إذن فلا نخاف . ولنُصغ الى كلمات واحدة من أخواتنا :

إن الطريق وعرٌ للغاية . إنه متصاعد باستمرار . وبدلًا من الزهور تتجرّح قدماى بالأشواك . والسماء فوق ملبّدة بالغيوم .

ولكنّ شخصاً أمسك بيدى عند البداية المُعتمة . وما أحلى الطريق الذى سرته معه !

إن الصليب ثقيل ثقيل . أثقل من أن يحتمله ظهرى . إنه خشن عريض شائك : وليس هناك من يهمّه أمرى .

ولكنّ شخصاً انحنى فى رقّة . ولمس يدى . وهمس « أنا أعرف وافهم ويهمنى أمرك !

إذن فلماذا نتأوه ونتضجّر ــ نحن حاملات الصليب ؟ !

فالطريق سينتهى عما قريب .

سينتهى عند أعز مكان .

---

(١) لوقا ١٤ : ٢٨ ــ ٣٢ (٢) كورنثوس ١١ : ٢١ ــ ٢٧

وكل خطوة فى الرحلة ستقضيها بصحبة الرب —

أنها مجارى المياه وسط الصحراء .

١٥ — وللسيدة دوميتيلا بادريوس (من بوليفيا بأمريكا الجنوبية) تعبير على جانب كبير من الروعة إذ هو دليل على سذاجتها المتناهية . فهى تقول إن للمرأة وجهة نظر تختلف بالضرورة عن وجهة نظر الرجال . لأنها تتميّز بثلاث ميزات خاصة بجنسها : تتميّز برَحِم وبسفك الدم لأعطاء الحياة وبثديين . فالرَحِم مكان مخصص للحياة والدم المسفوك تتكشف معناه على مدى السنين : إنه الترقب والرجاء المتعلقان بالنمو الانسانى . فالطفل الذى نزفت لكى تبرزه الى الوجود سيكون إنسانا مكتمل النضوج يوماً ما . وفى ترقّبها لنموه ترجو أن تجعل منه عضواً حياً نافعاً فى جسد السيد المسيح . أما الثديان فهما التغذية حتى الروحية !

وبسبب تكوين جسدها تكوينا خاصاً ففى استطاعة المرأة أن تتحدث بطريقة جديدة عن سّر الله : سر المسيح الذى كان مخفيّا منذ الدهور وأُظهر لنا . وكما تستطيع أن تتحدث تستطيع أن تخدم . فهى تقدر أن تجعل من الكنيسة فضاءً مخصصاً للحياة ، وأن ترقب الأطفال برجاء ثابت وهم ينمون « فى القامة والحكمة والنعمة عند الله والناس » وهى فى إمكانها أن تغذّى هؤلاء الأطفال ليس باللبن الطبيعى فقط ، بل أيضا باللبن المعطِى حياة أبدية . **ولو تأملنا المرأة فى صميمها الروحى لعرفنا أنها تشابه فاديها الحبيب فى أنها تسكب الدم لتعطى الحياة .**

إذن فمن الضرورة أن نعمل على تهيئة الفرصة أمام المرأة لتعبّر عن اختباراتها الروحية العميقة . ولكونها حاملة الحياة يجب إفساح الطريق أمامها لتعلن رأيها فى صراحةٍ عن كيفية الحياة وكيفية السلوك فيها . ويجب أن نبدأ بأنفسنا بمعنى أنه يجب أن نشجّع أخواتنا على الثقة فى نفوسهن والثقة فى إمكانّياتهن . ومتى تشجّعت إحداهن نحفّزها على المزيد . ولتنفيذ هذا الواجب **علينا أن نصرّح بأن فى إمكان كل واحدة منا أن تلمس الله وتشّمه وتذوقه وتسمعه وتراه . وللوصول الى انشغال كل حواسّنا بالله يجب أن نصلّى بلا فتور .**

فيا أيتها الأمهات فى كافة أنحاء العالم هلموا نتكاتف لنحقّق مشيئة الله[1]

١٦ — وجدير بنا أن نعرف أنه توجد مجموعة أرثوذكسية تتألف من الهنود الحمر الكنديين الساكنين فى منطقة كولومبيا البريطانية . ومن هؤلاء السيدة سارة سايمون التى بلغت الثانية والثمانين من العمر . **وهى تعطينا دفعة قوية بكلماتها الروحية تعليقا على قول رب المجد « الريح تهبّ » حيث تشاء** وتسمع صوتها . ولكنك لا تعلم من أين تأتى ولا الى أين تذهب . هكذا كل من وُلد من الروح . »[2] واليكم كلماتها : الروح القدس يهبّ ، فانا أسمع صوته فى أصوات أولئك المنادين بالسلام وبالعدالة وبالتحرر من الظلم . إنها أصواتٌ تُصرّ على أن يُصغَى اليها .

وأنا أحس بلمسته فى الأذرع الممتدة : الأذرع التى تمتدّ متخطّيةً الحواجز التى أقامها الناس — حواجز الجنس والقومية والإيديولوجيا ؛ الأذرع المتلهّفة على احتضان جميع أولاد الله .

وأنا أرى عمله فى عينىّ طفل — عينين متوثّبتين رغبةً فى الحياة .

وأنا أختبر حضرته فى الضحكات والدموع المتشارَكة المتبادَلة بين القلوب التى تجاهد للتصالح والسلام .

وأنا أحتفى بحقيقته وأتوجّع لألمه فى سر الإفخارستيا .

وأنا أشهد لقوّته كلما رأيت أقواماً من مختلف الجنسيّات والمذاهب يجتمعون معاً ليتبادلوا اختباراتهم عن الله .

١٧ — ولنعد الى شرقنا الأوسط لكى نقف فى شىء من التهيّب أمام سيدة لبنانية تتحدث عن « **الحياة تواجه الموت وتتغلب عليه** »[3] ، قالت : إننا نختبر الموت فى وسط الحياة : فنحن شعبٌ يعيش بأكمله تحت علامة الصليب .

(١) لا يسعنى فى صدد ذكر الأمهات إلا أن أبعث بتحية ولائى الى أمى وهى فى الفردوس

(٢) يوحنا ٣ : ٨

(٣) سمها فريده حداد وهى أرثوذكسيه كما يتبين من حديثها

يعيش تحت الموت . **يعيش يوماً بيوم على حدود الموت والحياة . وفى موقفه هذا يمدّ يديه مع توما الرسول ليتحسس شوكة الموت فى لمسة مباشرة للمسيح القائم . وبهذه اللمسة ذاق حلاوة الحياة ومجدها فى مواجهتها للموت والانتصار عليه .**

وتراث الكنيسة الشرقية موسومٌ بهذا التراث الكيانى ؛ فالكنيسة لا تبدأ بالمفاهيم والنظريات بل تبدأ بالحرى بالاختبار المباشر وباجْتيازها خبرة التطهير . وبالحياة على حدود الموت يتلاشى أمامها كل ما هو غير ضرورى .

وطعم الموت المتربّص يبدد كل وهم ويستأصل كل تفاهة . إنه يتقّى الهواء الروحى ! فهو يواجهك مراراً وتكراراً بما لا تستطيع تفهّمه تماماً مع كونه يلحّ عليك كل يوم . ولابد من أن توما الرسول اختبر هذا كله حين مدّ يده المتشككة . لابد من أنه أدرك بأن هناك وسيلة للمعرفة تتفحّص مالا يمكن للعقل وحده أن يتفحّصها . إنها الوسيلة التى تتخاطب بها قوة القيامة : قوة الحياة التى قهرت الموت وحين جلس الى جانب إخوته التلاميذ تجمّعت الكنيسة خلف الأبواب المغلَقة ، وتناول الكل سر الإفخارستيا من يد الرب القائم الذى نفخ فيهم قوة قيامته .

... ولقد تجمّعنا ذات يوم ــ كان يوم عيد القيامة ــ فى كنيسة صغيرة . وكنا نصلّى على أصوات المدافع ودويّ المتفجّرات . فعرفنا يومذاك أننا مجتمعون لنختفى بالآتى ، ومنه ننال روح الحياة والسلام . وهذا الوعى بالحضرة الإلهية نحسّه كلما اجتمعنا لنتناول جسده الأقدس ودمه الكريم .

يقول لنا الرآئى : « وسيمسح كل دمعة من عيونهم . والموت لا يكون فيما بعد . ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع . ها أنا أصنع كل شىء جديداً . » كيف يمكننا أن ننادى بهذا وسط الخرائب والدمار ؟ وكيف نعلّم به والجديد لم يبزغ بعد ؟ إن خير صورة لحياتنا هى أننا نعيش منجماً ضخما للفحم . وهذا الفحم يُخفى تحته الماس الساطع . فالرب مختبىء داخل قلوب مُعتِمه . والعالم

---

(١) رؤيا ٢١ : ٤ ــ ٥

الجديد محمول به فى سرّية العمق فى هذه القلوب . متى يبزغ الفجر ؟ إن ظلمة الموت والألم لا تزال تغطّيه .

والكنيسة المصلّية فى الشرق تعيش كل يومٍ حياة جديدة : تعيش ذلك اليوم الذى جعل الله منه الساعة الحاسمة لإعلان محبته لنا على الصليب فوق الجلجثة . إنها تصلّى يوميا : « أيها المسيح إلهنا ، يامن فى هذه الساعة بسطت يديك الحانيتيْن على الصليب لكى تجمع الجميع اليك . إنها هذه المحبة التى تبيد الموت . إنها محبة رجل الآلام الحامل الأوجاع . إنها سرّ الهتاف الذى كمل فى صمت الله . »[1]

والله متجسّد دوماً فى لحم التاريخ الإنسانى . إنه مصلوبٌ فى كل ألم ووجع إنسانى . فنحن فى أنطاكية قد وصلنا الى قاع هاوية المرارة . ومع ذلك فليلنا ليل الترقّب . فنحن ــ على حد قول يوحنا الدمشقى ــ كالجمر الذى لا يحترق من نفسه ولكنه يحترق بالنار التى تتخلله . هكذا أنا لست سوى فحمة سوداء باردة . ولكى ألتهب بنار العنصرة أحتاج الى خبز الله الذى هو جسد السيد المسيح والى شرب دمه الذى هو المحبة الباقية الى الأبد .

ففيه وحده نحن أكثر من منتصرين . وفيه مركز الكون . وفيه نقطة التلاقى التى تخفى السلام داخلها . « إنه فينا تقدمه السلام . إنه المُعطِى والعطية . »[2] فنحن أشبه بيعقوب فى مصارعته مع الملاك[3] إذ نصارع فى الظلام . ولكننا نعرف أن الفجر سينبثق . وأننا سنرى الله وجهاً لوجه . وعلى الرغم من أننا سنخرج عارجين لأن حُق فخذنا قد انخلع فإننا سنكون قادرين مع الله والناس . **فنضرع الى الله أن يطلع النهار قريباً . وأن يمنحنا القوة لنحوّل الأرض نحو رؤية وجه الله** .

---

(١) عن القديس إغناطيوس الأنطاكى

(٢) من قداس القديس يوحنا ذهبى الفم .

(٣) تكوين ٣٢ : ٢٢ ــ ٣٢

١٨ ــ ونستمع الآن الى سيدة انجليزية اسمها بولين وبب وهى تتحدث عن « **كلمة الحياة** » : « الذى كان من البدء . الذى سمعناه . الذى رأيناه بعيوننا . الذى شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة . فإن الحياة أُظهرت . وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التى كانت عند الآب وأُظهرت لنا . الذى رأيناه وسمعناه نخبركم به لكى يكون لكم أيضاً شركة معنا . وأما شركتنا نحن فهى مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح . **ونكتب اليكم هنا لكى يكون فرحكم كاملاً**[1] .

إن البشير ملتهب حماسة . ولإلتهابه نرى الكلمات تتراكض حتى لكأننا نسمعه يلهث وهو يكتبها ! وهذا التعبير الملتهب يتركّز فى قوله « كلمة الحياة » التى ترّن رنينا كأنها بوق يعلن حقيقة حاسمة . ونسمع فى هذا الرنين صدى الأعماق التى افتتح بها يوحنا الحبيب انجيله . إذن فلنمكث بعض الوقت مع هذا الذى يشهد بأنه وجد الحياة : الحياة الأفضل . الحياة فى ملئها . الحياة التى لانهاية لها فى الألتقاء بالرب يسوع .

والتلميذ الحبيب يركّز كل انتباهه على البقاء مع السيد المسيح ، لأننا بوجودنا معه سنجد معنى الحياة . وهذا المعنى هو المحبة الباذلة التى لاتقهر . المحبة المتبادَلة التى تتخطىّ حدود الجنس واللون . على أن التلميذ يعرف أن يخاطب جماعة من المسيحيين العائشين تحت التهديد والتضييق من الخارج والانشقاق من الداخل . وقد تركّزت مشكلتهم فى أنهم كانوا يعيشون وسط **مجتمع يدعى أن هذا العالم الشرير لايمكن إطلاقاً أن يكون مملكة لإلهٍ قدوس . ومعرفة الله ــ فى فكرهم ــ يجب أن تأتى عن طريق نوع من الاستنارة الروحية بعيدة عن حياة العالم وحياة الجسد** .

---

(١) ١ يوحنا ١ : ١ ــ ٤

والتلميذ الحبيب يعرف « أن العالم قد وُضع فى الشرير[1] ويواجه هذا الواقع صراحة » . ولكنه واثق تماماً أنه عالم الله تمزّق بسبب تمرّد الإنسان . وهو ينادى على المسيحيين بأن يصارعوا قوى الشر بكل ما فى الإيمان من تفاؤل : الإيمان العامل بالمحبة . لذلك فمن يختار السيد المسيح يختار الحياة ؛ ومن يمكث فيه يصل الى ملء الحياة : الحياة التى تبدأ هنا وفى هذا العالم وتمتدّ الى الأبدية . **إذن فبالنسبة ليوحنا الحبيب ليست الصلة بين يسوع المسيح وبين العالم مجرد همزة وصل : إنه ذاك الذى أتى ويأتى وسيأتى الى العالم بوصفه الكلمة الذاتى لله ــ كلمة الحياة . ومجتمع المؤمنين به منادَى عليهم أن يكونوا الواسطة التى يوصّل الله بها كلمته الى العالم . « فالكلمة » لم يكن قط كلمة مكتوبة ولا كلمة مقولة : إنه شخص وحَدَث واقعىّ .**

وإذ نتمعّن كلمات البشير نحس كأننا واقفون على أطراف أصابعنا فى دهشة التوقّع . لقد رأينا الرب فى وسطنا . وسواءً رأيناه فى لحظة لاهثة امتلأنا فيها وعيا بحضرته ، أو عن طريق التغذية اليومية بكلامه وبالقداس الإلهى ، فإننا نعرف كلمة الحياة دائما مما رأيناه وسمعناه ولمسته أيدينا . ويجب علينا أن نسمع بعيوننا وقلوبنا لا بآذاننا فقط .

وهنا يحضرنى شعر كتبه شاعر من أوغندا يعبّر به عما أصاب المؤمنين من تباعد ومايرجوه لهم من تقارب لن يتأتّى إلا عن طريق الوجود فى حضرة السيد المسيح . وقد نُشر هذا الشعر يوم عيد القيامة سنة ١٩٨٣ ، قال :

« لقد تصافحنا باليدين . ولكن قامت بيننا قوّات هى حواجز الجنس والتاريخ وتحاسد الحاضر وحتى فى هذا التصافح العابر أحسست بما فى داخلنا من سلبيّات تتراجع عن اللقاء . واستشعر كلّ منا الضيق وصمت اللاقبول علامة » على فشلنا .

لقد تصافحنا باليدين ووقفنا معاً . وفى ضغط اليد على اليد أحسسنا بالفرح : الفرح المتبادَل بين الضيف والمضيف .

---

(١) ١ يوحنا ٥ : ١٩

فجلسنا فى ارتياح . وابتسمنا . وتنهّنا . وتشاركنا الطعام من طبق واحد

وحين نتكلم عن كلمة الحياة علينا أن نؤكد لنفوسنا أنها مكتوبة بالدم . فلقد وقّع الرب على عهده الجديد بدمه الذى سكبه على الصليب مؤكداً لنا المغفرة وموصّلا إيانا الى صلة جديدة بيننا وبين الله وبيننا وبين بعضنا البعض . ويقول لنا بولس الرسول إن الله خلق الجميع من دم واحد **ولكننا لسنا من دم واحد بالخلقة فقط بل إننا بالأولى من دم واحد هو دم الخلاص المنسكب علينا جميعا والذى نشربه جميعا .**

ويوحنا الحبيب لا يشير فى رسالته الى العهد القديم إلا حين يتحدث عن قايين . ومأساة قايين ليست فى أنه نسى الله بل فى أنه جاء الى الله بطريقة بلهاء ـــ جاء وهو متمركز فى ذاته وفى استحقاقاته الخاصة . ومن هذا الموقع عجز عن أن يتفهّم أخاه وبالتالى قتله . فأقام بذلك حاجزاً بينه وبين الله الذى قال له : « صوت دم أخيك صارخ اليّ من الأرض . »[1] ترى ـــ ألم يزل الله يردد فى آذاننا هذا القول ؟

وسكب الدم يكون رمزاً للحياة بدلاً من الموت . فبالنسبة للمرأة نجد أن سكب الدم هو بالأولى بركة وليس لعنة . إنه علامة على أن جسدها مهيء لإبراز حياة جديدة . وحتى لو لم تسعد بالأمومة الجسدية فالطاقات الكامنة داخلها يستخدمها الله لصالح الناس . فهى منادَى عليها أن تعظّم الحياة حيثما وجدتها ضعيفة . وهى بتعظيمها الحياة تعظم رب الحياة .

ولقد شبّه السيد المسيح تلاميذه فى عملهم الكرازى بالمرأة الحامل . فبينما العالم ينتظر على رجاء تتوجعّ هى وتتلوّى فى مخاضها لتأتى بحياة جديدة مختبئة داخلها . ونحن نعيش فى عالم حامل لملكوت الله ، فنتشارك فى المخاض والألم والعرق لولادة هذا العهد الجديد : عهد ابن الله هذا الابن الوحيد الذى يخبرنا عنه يوحنا بأن ثلاثةً يشهدون له : الروح والماء والدم . فالمسيح هو البداية لأنه النهاية ، وهو النهاية لأنه البداية . **فنطلب اليه أن يمنحنا نعمة الثبات فيه الى المنتهى .**

---

(١) تكوين ٤ : ١٠ ـــ ١١

ونجد إشارة منعشة الى انتشار البشارة فى نبوة يوئيل التى أعلن بها الله أنه سيسكب من روحه على كل بشر ... وعلى عبيدى أيضاً وإمائى أسكب من روحى فى تلك الأيام . فيتنبأون ... »[1] **والمنعش فى هذه النبوة أن الله أعلن شمولية انسكاب الروح القدس** . فقد حدث مراراً وتكراراً أنه سكب من روحه ، ولكنّ هذا السكب كان قاصراً على أفراد معيّنين ولرسالةٍ معينة . **أما فى هذه المرة فسيمنح هذه العطية لكل المؤمنين والمؤمنات : « على عبيدى وإمائى »** . **وهذا هو الفرح الذى يعقب آلام المخاض أثناء الكرازة** . وواضح أن الرسل أدركوا هذه الشمولية لأننا نقرأ فى سفر الأعمال عن وجود التسوة بينهم .[2] بل إن الوثنيين أنفسهم شهدوا لها إذ قال أحد فلاسفتهم : « يالعظمة النسوة بين المسيحيين ! »[3]

ولننتبه أيضا ــ كى لاننسى ــ أن الرياسة والخضوع معناهما الإكرام المتبادَل بين من يحملون الاسم المجيد : « مسيحيين » .

فلنَدع الحياة الممنوحة من الله تنمو وتكبر وتثمركى يتمجد الخالق بالعدالة والسلام ؛ وليتبارك السيد المسيح الذى بذل حياته فداءً لحياتنا والذى أعطانا العتق من الموت وإمكانية الحياة فى ملكوته الى الأبد .

١٩ ــ ولنتمعّن فى شىء من التعجّب مافعلته مريم أخت لعازر . فالمحبة الصريحة التى امتلأ بها قلبها جعلتها تبتصّر الرب إلى عمق أكثر غوراً من رؤية تلاميذه له . وبهذا التبصّر إسترخصت الطيب الناردين الخالص كثير الثمن فكسرت القنينة ودهنت قدمىّ ربها به باندفاعة تلقائية لم يفهمها الماديّون . إنه ربها . رب المحبة . وكأنها استشعرت ماستكلّفه هذه المحبة . فسارعت الى سكب الطيب توقعًا ليوم تكفينه . وهو ــ له المجد ــ قد شهد لها بذلك .

(١) يوئيل ٢ : ٢٨ ــ ٣٠ ، أعمال ٢ : ١٦ ــ ١٨

(٢) أعمال ١ : ١٤ و ٢ : ١ ، كليمنز : « فى المعنى المقصود من قول الرب » نعمل الانسان » ص ١٣ و ١٠٥ ــ ١٠٦ ، دورثى نايس : « المرأة فى تدبير الله وفى عالم الرجل » ــ مقال نشر فى مجلة (التبشير) عدد أغسطس سنة ١٩٧٣ ص ٦٢٢ ــ وكلاهما بالانجليزية

(٣) قالها فى إشارته الى أم يوحنا ذهبى الفم .

والواقع أن خير وسيلة لتفهّم إنسان هى رؤيته بعينّى إمرأة تحبه . لأن المحبة لها بصيرتها الخاصة التى ترى الأعماق . فان كان هذا حقيقياً فيما يتعلق بانسان فكم بالحرى تتضاعف هذه الحقيقة بأزاء ذاك الذى دعا نفسه « ابن الانسان » ؟ وهو بهذه التسمية قد حمل الإنسانية كلها برجالها ونسائها من آدم والى آخر الدهور ــ حملها فى جسده شخصياً . **فإن شئنا نحن النسوة أن « نلبس السيد المسيح » علينا أن ندرك واقعيّة أنوثتنا فنتيقّن بأننا لو غطينا هذه الأنوثة أو خجلنا منها لن نستطيع أن نعيش فى ملء سيدنا لأننا لانعيش ملء إنسانيتّنا . إذن فلا بد من أن نتفّهم بأن نجد ملء كمالنا الإنسانى بوصفنا نسوة .**

وبهذا التفهّم لنذكر أن فادينا الحبيب هو « مولود إمرأة » وأن المرأة لازمته الى الصليب .

٢٠ ــ وهناك امرأة تخطّاها التذكّر هى **حنة نبية بنت فنوئيل** . كانت قد عبرت قرناً أو مايزيد على هذه الأرض : **قضت أربعاً وثمانين سنة منه داخل الهيكل عابدة بأصوام وصلوات ليلاً ونهاراً** . إن هذه « الشيخة » بمواظبتها على التعبّد قد تطلعّت الى ماهو أبعد من الخلاص . لأنها حين رأت « الصبى يسوع فى الهيكل » « وقفت تسبّح الرب . وتكلمت عنه مع جميع المنتظرين فداءً فى أورشليم . » ومن هذا الوصف نرى أنها الكارزة الثانية (بعد السيدة العذراء) فهى بشرت بانجيل الفداء . **ومع فرحتها لم تكتفى بأن تطلب الانطلاق (كما فعل سمعان الشيخ) بل أخذت تتحدث عن الرب أولاً « مع جميع المنتظرين فداء » . فإن لم يكن التحدث عن الفداء تبشيراً ــ فما هو التبشير ؟** وهذا هو النداء الموّجَهَ من الرب نفسه الى كل امرأة : النداء بأن تتحدث عما أكمله من فداء فتشارك الرجل فى العمل الكرازى بجديتّها وبنموذجها وبحياتها التى استمتعت بقضائها فى هيكله .

وقد يتعجّب البعض إن هم سمعوا أن لحنة نبية فنوئيل مثيلاتها اليوم . فالمتأمل جدّيا فى حياة المجتمع يكتشف خلف مظاهر السطحية واللامبالاة مدى تشوّق الإنسان الى الله . **ويتضح من هذا التأمل أن انجيل السيد المسيح أشبه بقنبلة**

زمنية اندفنت فى عمق التاريخ ثم أخذت تتفجّر فى مختلَف البلاد وعلى مختلَف المستويات، : تتفجّر لتحطم كل شكل اجتماعى مبنى على أساس غير ذاك الذى يجب أن يقوم عليه ــ الأساس الذى هو يسوع المسيح نفسه .
والمتعجبون سيزدادون اندهاشا حين يعرفون أن المرأة الآن نشطت نشاط حنه بنت فنوئيل بشكل واضح فى البلاد التى زعمت الشيوعية فيها بأنها انتصرت على المسيحية ! فالذى « خرج غالباً ولكى يغلب »[1] لا تستطيع قوات الجحيم أن تقف فى طريقه .

ولئن كانت ملكوت السماوات أشبه بالخميرة فإنها الخميرة التى خبأتها امرأة فى ثلاث أكيال دقيق حتى اختمر الكل .

وخميرة الملكوت معناها التخمّر الروحى الفكرى الذى تبلغه كل من تمحّص نفسها فى صراحة وشجاعة : فتنقّب وتبحث باجتهاد فى خبايا نفسها ومنحنياتها لكى تتفهّم المعنى الذى شاءه الله من خلقها . **وليس من شك في أن البحث عن تكامل الشخصية وعن الصلات بين النساء والرجال سيرفع القناع عن سرّ لايمكن الاقتراب منه إلا بشيء من الرهبة .**

وأول مايجب إدراكه فى هذا التمحيص هو أن الطفل لايولد ومعه الإدراك الغريزىّ لقيمته الشخصية الفردية ــ بل هو يدركه عن طريق التربية . وبالطبع يبدأ تقييمه لنفسه ولغيره بمايراه ويسمعه ويختبره من والديه . وهنا يقول أحد القديسين : « **ما أعجب ثقة الله فينا ! إنه يأتمنا على رعاية أولاده من طفولتهم الى نضوجهم !** »

٢٢ ــ ولو أننا توقفنا قليلاً لنتفحص أقوال فادينا الحبيب تملّكنا الذهول ــ فأقواله أشبه بالخيط الذهبى المعلن للشمس الساطعة خلف الغيوم مهما تكاثفت ومن أبرز الأدلة على هذا السطوع الحركة الرهبانية التى ظهرت فى ألمانيا الغربية والتى مازالت تتسّع يوماً بعد يوم . **وهذه الحركة معروفة باسم : « راهبات مريم**

---

(١) يو ١٦ : ٣٣

الانجيليات » ــ **أى أنها من داخل كنيسة بروتستانتيه ! وهذ العجب يرجع** الى أن البروتستانت حين إنشقّوا على الكنيسة الكاثوليكية منذ القرن السادس عشر أنكروا الرهبنة . فحقا « إن الريح تهبّ حيث تشاء وتسمع صوتها . لكنك لاتعلم من أين تأتى ولا الى أين تذهب . هكذا كل من وُلد من الروح . »

ومن الأمهات البارزات فى هذه الرهبنة الانجيلية الأم باسيليا شلينك . وقد تُرجمت عدة كتابات مما وضعتها الى العربية ولها كتيّب بديع يتناسب تماماً مع حديثنا ــ فعنوانه « **فرح قلبى** » ومع صغر حجمه فهو ذو قيمة كبرى . وقد رتّبته ضمن ثلاثة أقسام : كل قسم فيه الأفكار الروحية التى ينتفع بها القارىء خلال أربعة شهور . والطريف أن الأم باسيليا لم ترتّب الشهور تباعا . ويبدو أنها اختارت شهراً من كل فصل لتتجمع الفصول الأربعة فى التأملات الخاصة بكل قسم منها .

والقسم الأول ينضمّن أشهر : يناير ، أبريل ، يوليو ، أكتوبر ، **وتغلب روح المحبة خلال كل التأملات التى تشير بها** . ومن هذه التأملات : « أحسن الى الذين يكرهونك ، ووجّه الدعوة للذين يقلمونك . صلّ من أجل الذين يؤذونك ويهينونك . ففى هذه كلها يفرح الآب السماوى ويهيء لك السبيل الى ملكوته : » وهى تنصح أيضا بالعرفان فتقول : « عبّر دائما عن شكرك حتى من أجل أصغر الأشياء التى تنالها عن طريق الخدمات والملاطفة ». « لاتدع أية فرصة تفوتك لخفض كبريائك لأن الله يهب نعمته للمتواضعين . كذلك كن خدوماً للجميع حتى لمن تعتبرهم من أحقر الناس . افتح قلبك لكل من يجيئك بطلب . واستهدف أن لاتدع يوماً يمر من غير أن تبذر فيه بذور المحبة فى أوسع مداها . وإيّاك أن يغمرك العمل اليومى الى حدٍ يجعلك تنسى الاختلاء بالله . ثم إن ودّك أحد عن خطأ فافتح قلبك على مصراعيه لتوجيهاته تشبّها بالعشّار الذى قرع على صدره طلباً للرحمة ».

أما القسم الثانى فيشمل شهور فبراير ، مايو ، أغسطس ، نوفمبر **وتغلب البسالة على تأملاته كما تغلب عليه الثقة التامة فى المراحم الإلهية** ــ فتقول :

« لاتيأس أبداً لأن اليأس لايبدّل الشدة . ثق بأن الشدائد ستزول . إحمل صليبك بشجاعة كل يوم من جديد لأنك فى حاجة ماسّة اليه . **فعن طريق الصليب تستطيع أن تتواضع فى مواجهة خطاياك الخاصة فيتضاءل انهماكك بنفسك ، وعندها لن تحتقر أحداً** . فكل إنسان مخلوق على صورة الله . **كذلك يجدر بك أن تعوّد نفسك على العطاء بكرم ولا تتخذ من مبدأ العشور وسيلة للاطمئنان**[1] ــ ففادينا الحبيب طالبنا بالميل الثانى[2] . بل حتى حين تقيم وليمة أدعُ المساكين والمحتاجين . وأيضا درّب نفسك على الابتعاد عن جميع المشاجرات والمخاصمات المدمّرة لمملكة المحبة . وحاذر من أن تخرج كلمة قاسية من فمك .

ويتضمن القسم الثالث شهور مارس ، يونيو ، سبتمبر ، ديسمبر والأم باسيليا **تركّز هنا على العطاء وعلى الأمل الواثق وعلى ضرورة الجهاد** . ومن أقوالها : « إسأل تَنَلْ فمن لايسأل لاينال . **ومن يسأل قليلا ينل قليلا** . **فاطلب الكثير من أبيك السماوى** الذى يعطيك الجميع بسخاء ولايعيّر . وكما تطلب الكثير أعطِ الكثير على قدر استطاعتك ». « ولقد قيل عن هذا العالم إنه وادى البكاء فلا تحاول التهرّب من الألم بل جابهه برضى وسرور لأن الدموع من نصيب المختارين[3]. واعلم أنه لا إنتصار بدون جهاد . كما أن **سرّ الحياة الحقيقية يكمن فى التضحية فبقدر تضحيتك تثمر حياتك ثماراً أبدية** إذن فلا تدع فرصةً للتضحية تفوتك . وعندما ترى أحد الناس فى آلام جسدية أو نفسية فاسلك معه مسلك السامرى الصالح » .

---

(١) الواقع أن العشور هى تعليم موسوى تخطّاه فادينا الحبيب فى كل تعاليمه . فالعشور وسيلة سهلة لإسكات الضمير .

(٢) فقد قال رب المجد : « من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا . ومن سخّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين ... » متى ٥ : ٤٠ ــ ٤٢ ؛ كذلك طالب الغنى بأن يبيع كل أمواله ويتبعه . فهل يستطيع مؤمن بالسيد المسيح أن يتوارى خلف العشور ؟

(٣) مزمور ٨٠ : ٥ و ٨٣ : ٦

« **درب نفسك يومياً على الصبر** مستمعاً الى قول الرسول : قد سمعتم بصبر أيوب ورأيتم عاقبة الرب معه[1] ــ فالرب يحّول الصبر إلى فرح والصابرون يعيشون على رجاء . فعِشْ بالأمل يضمحلّ الحزن . واقرن صبرك وأَمَلَكَ بالشكر . إرفع شكرك الى الله بغير فتور حتى فى أحلك الأوقات ؛ بل وأكثر من هذا : **خصص وقتاً يومياً تتذكر فيه إحسانات الله لتعرف مدى محبته ورعايته لك** .

أذكر على الدوام الوصية الجديدة التى أعطانا إياها ربنا يسوع المسيح وهى أن **نحب بعضنا بعضاً كما أحبنا هو فبادر بتنفيذ هذه الوصية كطلب خاص منه لك ، عالماً أن المحبة تخفّف أثقل الأعباء وتجمّل كل الأشياء** والله يطلب قلبك ويرغب فى التحدّث معك . ولكنه لايدخل إلا إلى القلب المتفّتح له ... »[2]

وهكذا نرى أن الله لايدع نفسه بلا شاهد فى كل عصر وبين كل شعب ، لأن محبته اللانهائية تشمل الإنسانية بأسرها . ألم يطلق على نفسه لقب « ابن الإنسان » ؟

٢٢ ــ إذن فلئن شاءت المرأة أن تخدم فاديها الحبيب عليها أن تبدأ بنفسها بالتمحيص الذاتى وعن طريق سرّ الاعتراف . وبهذه البداية ستهيء نفسها للرسالة العليا التى أرادها لها الله : رسالة الأمومة . والأمومة أعظم استجابة لائتمان الله إياها . وهذا معناه تقبّلها لأنوثتها برضى وشكر . ولكى تصل إلى هذا العمق تضع نفسها بنفسها تحت التدريب اليومى بجسارة منفّذة وصية الأنبا أنطونيوس أبى الرهبان المدوّية : « كونوا جسورين ياأولادى . كونوا جسورين »

ومن نعمة الله أن هناك رجالاً ــ الى جانب القديسين ــ يؤازرون المرأة فى جهادها . ومن أبرز هؤلاء العالم النفسانى يونج ، فقد قال : « إن التخصص العلمى البحت هو عادةً من صفات الذهن الرجالى . وهذا الذهن تعوزه الخصوبة

---

(١) يعقوب ٥ : ١١

(٢) عن كتيّب « فرح قلبى » (بالألمانية) للأم باسيليا شلينك ، ترجمة الى العربية جودى دقماق .

وبالتالى يعجز عن أن يعطى ميلاداً جديداً لما هو أجنبي عنه . **ولكنّ العقل الواسع يحمل طابعاً أنثويا فهو لذلك يتّسم برَحِم متفتّح مثمر فى إمكانه أن يشكّل ما هو غريب الى شكل مألوف . ويمكننا القول بأن الذهن الجامع لناحيتّى الذكورة والأنوثة هو موهبة نادرة . إنه الموهبة التى تمنح صاحبها للقدرة التى لامثيل لها على تحسسّ الطريق نحو روح الآخرين وعلى تفهّمها ...** »[1]

فهناك إذن مقدرات خاصة بالمرأة وعليها أن نكتشفها . وهى لن تبلغ الى ملء إنسانيّتها مالم تسلك تبعا لحرية مجد أولاد الله : أى أن تختار بعدْ الصلوات الحارة وبعد المقارنة والموازنة الطريق الذى تجده أنسب طريقٍ لها . وعليها أن تدرك أيضا أن **الهدف النهائى من الصراع النفسى ليس مجرد الانتصار ، بل هو يشمل التعلّم يوماً بعد يوم ــ أو على حد قول بولس الرسول : « أنسى ماهو وراء وامتدّ الى ماهو قدام** . أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا فى المسيح يسوع »[2] . فالآب السماوى يريد أن يرفعنا من أمان العبيد الى مخاطرة الأبناء : مخاطرة المسئولية الموضوعة على الأبناء .

وغنى عن القول إن السيد المسيح يعيش داخل كل نفس تقّبله سواءً كانت نفس امرأة أو نفس رجل . **والنفس الواعية بوجود ربها داخلها سترى أنه يريد منها أن تعيش أفقيا وعاموديا** . وهذا يوضحه لنا رسول الأمم بقوله : « ليحلّ المسيح بالايمان فى قلوبكم . وأنتم متأصلون ومتأسسون فى المحبة حتى تستطيعوا أن

تدركوا مع جميع القديسين ماهو العرض والطول والعمق والعلو وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكى تمتلئوا الى كل ملء الله »[3] .فهذا الرجاء الذى يستهدفه بولس من حلول السيد المسيح فى قلوبنا هو أن ندرك العرض (أى الحياة على المستوى الأفقى) ، والطول (أى الحياة على المستوى العامودى) . بل إن هذا الرسول العجيب يكمّل وصفه للإدراك العامودّى بقوله « العمق والعلو » . **والحياة على**

---

(١) كارل يونج : « مجموعة كتاباته » ترجمة الى الانجليزية ر.ف. هول ، حـ ١٥ ص ٥٤

(٢) فيلبى ٣ : ١٣ ــ ١٤ (٣) أفسس ٣ : ١٨ ــ ١٩

المستويين الأفقى والعامودى هى الحياة على شكل الصليب . لأن الصليب هو الرمز الى ما يجب أن تكون عليه حياة كل رجل وكل إمرأة فى المسيحية : حياة الملء الإنسانى الذى هو « التشارك فى الطبيعة الإلهية »[1].

ومن أبدع التشبيهات الآبائية ذلك التشبيه الذى يقول بأن العالم كروى بينما القلب له زواياه . **ولو أن العالم كله وُضع داخل القلب لظلّت هذه الزوايا فارغة ولا يملأوها غير الله لأنه « فصّل » القلب الإنسانى ليحتويه هو نفسه .** وكما رفّ روح الله قديما على المياه فحّولها بالكلمة الخلّاق الى عالم يموج بالحياة هكذا يرف الله على القلب الإنسانى ويواجه عزلته فيفيض على هذه العزلة من ملئه ويدفع بالقلب الى التواصل مع الغير بطريقته الفردية . وروح الله هو بعينه الذى يجتذب القُوى الداخلية من جمودها بإعطائها الوعى والإدراك لما هو فوق الموصول اليه الذى يعلو على كل وعى وكل إدْراك .

والروح الخالق فى عمله من الداخل لايباغت المخلوق الى الوعى فقط بل إنه يستدرجه أيضا الى التسامى باستمرار نحو ماهو أعلا بأن يخلق داخله الضرورة الى الاختيار الحر مراراً وتكراراً . وهذا الاختيار يقوم دوماً على المقارنة بين الواقع من ناحية والإمكانيات من الناحية الأخرى . وهذا التقدّم التصاعدى معناه أن كل خطوة الى فوق هى موت للخطوة السابقة . **إذن فحياة المسيحى على شكل الصليب هى بالضرورة حياة موت باستمرار .**

ولكى نستطيع أن نحيا « الحياة ــ الموت » باستمرار يلزمنا :

+ الإيمان الذى ينقل الجبال ،
+ والرجاء الذى يعلو فوق كل يأس ،
+ والمحبة التى لاتنكمش أمام الألم .

* * *

٢٣ ــ واليكم مثل حى لهذا الإيمان وهذا الرجاء وهذه المحبة . إنه مثل عن امرأة اسمها إيجلانتاين حبيب : ملتهبة وذات حنان عميق تابعت بهما فى إنكار

(١) ١ بطرس ١ : ٤

كلىّ للذات حلماً رهيباً هو العناية بالأطفال المتألمين حيثما وجدتهم.

ولقد أذهلت هذه المرأة البارعة الجمال أصدقاءها ومعارفها حين دخلت محكمة « مانشون » بلندن ففى ١٥ مايو سنة ١٩١٩ رأوا إيجلانتاين تخطو خطوات ثابتة سريعة نحو المدّعى العام المقطّب الجبين وتناقشه نقاشاً جدّيا رزينا . وكانت هيئة المحكمة قد استمعت الى كشف الاتهامات التى أدت الى وصولها للمحاكمة . فهى — من غير إذن الرقيب — نشرت ووزّعت النشرة بالصور عن طفل نمساوى أقرب الى المومياء منه الى شخص حى ، وقالت أنه واحد من أربعة مليون طفل فى أوروبا الجائعة نتيجة للحصار الذى فرضه الحلفاء[1] على الأمم المغلوبة ، وهذا الحصار مازال مفروضا على الرغم من المجاعة القتّالة وكانت إيجلانتاين قد توصّلت الى معرفة هذه الحقيقة الرهيبة نتيجةً لعملها مع الصليب الأحمر . ففزعت من رؤية الأمهات النائحات أمام أطفالهن وهم يموتون جوعاً ولا من يعين . ولعمق حنانها وفيض محبتها قررت أن تصل الى المستحيل . ولم يكن فى جيبها ساعتئذٍ غير عشرة جنيهات سترلينى ومع ذلك فقد أقامت مركزاً للإغاثة تعاونت معها أختها دوروثى فى إقامته . وحالما افتتحت هذا المركز نشرت النشرة أوصلتها الى المحكمة

وراقبها أصحابها باهتمام متحيّرين عما يمكنها أن تقوله للمدّعى الذى أضطرها أن تصل الى المحكمة . وبعد نقاش قصير التفتت إيجلانتاين اليهم وقالت برنة الانتصار : « إنه يقول بأنه سيتبّرع لمشروعى « أنقذوا الأطفال » ولكن بعد أن تنتهى المحاكمة » .

وأصدر القاضى حكمة بتغريمها خمسة جنيهات سترلينى ومقابل هذه الغرامة اشتعلت لندن بالموضوع فبعد أربعة أيام فقط أقيم أول حفل المشروع « أنقذوا الأطفال » فى قاعة « ألبرت هول » الضخمة . وعلى الرغم من ضخامتها ضاقت

---

(١) هم إنجلترا وفرنسا ومن تحالف معهما ضد العدوان الألمانى التركى فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ — سنة ١٩١٩

بالجماهير ووقفت دوروتى على المنصة وأمسكت بعلبة لبن مكثّف وأعلنت : « فى هذه العلبة تتركز المحبه العملية ! » وسرى إشتعال إيجلانتاين الى القلوب فلم يمضِ غير تسعة أيام بعد هذا الاجتماع حتي كانت أول شحنة من اللبن فى طريقها الى قيينا .

ثم أقيم اجتماع ثانٍ فى القلعة عينها تحت رعاية الأميرة آن ــ بنت الملكة اليزابيت ــ فى ٢١ ديسمبر من السنة عينها . ولكن إيجلانتاين لم تكتفِ بهذين الاجتماعيْن بل أخذت تتجّول فى أنحاء انجلترا تستنهض القلوب العطوفة . وتنوعّت العطايا من عشرة آلاف جنيه سترلينى قدمتها نقابة عمال المناجم الى شلنين ونصف قدمها ولد فى التاسعة من عمره وهو يقول : « لقد استخرجتهامن حصّالتى » . وخلال سنتين تمكّنت إيجلانتاين وأختها دوروتى وبعض صاحباتهما من جمع مليون جنيه سترلينى .

وخلال المرارة التى ملأت النفوس عقب الحرب العالمية الأولى قيل عن إيجلانتاين ومساعداتها إنهن يحببن الألمان[1] . وألقى برناردشو ــ الكاتب الذائع الصيت ــ بجملة فى وجه هؤلاء الخصوم هى : « ليس لى أعداء ينقص سنهم عن السابعة من العمر » .

وفى وقتنا الحاضر أصبح مشروع « أنقذوا الأطفال » يُنفق ستة مليون من الجنيهات السترلينى سنويا لإغاثة أطفال فى خمسين دولة . وأصبح له ألفان من العاملين ميدانيا فى مستوصفات للأمهات والأطفال . وفى جنوب أفريقيا وحدها يقدّمن الطعام لمائتين وخمسين ألفاً من الأطفال يومياً . وقد كتبت إيجلانتاين مقالاً قالت فيه : « إن كل حرب ــ عن عدل أو عن ظلم ــ هى حرب ضد الطفل » . فكان له أثر دافع على جيل بأسره .

---

(١) ولكى ندرك عنف المحبة الملتهبة فى قلوب هاته النسوة علينا أن نعرف أن أنجلترا فقدت فى السنة الأولى من هذه الحرب الوحشية مئة وخمسين مليون رجلاً ! هؤلاء انضم إليهم عدد مماثل من الفرنسيين ثم تبعهم ملايين غيرهم فى السنوات الثلاث التالية .

وفى زيارة قصيرة للدكتور هكثور مونرو أقنعته بأن يترك عيادته القائمة فى حى أنيق من لندن ويسافر لفوره ليكون مستشاراً طبياً لمركز المشروع فى قيينا . وقد كتب فيما بعد يقول : « حينما تكلمت بدا كل شيء آخر لاقيمة له . فجعلتنى أوافقها بكل رضى وعلى أتم استعداد لتنفيذ رغباتها » .

وعلى الرغم من هزالها كانت روحها ملتهبة ساطعة حتى أن العاملات والعاملين معها كانوا يسمونها « النار البيضاء » (وهى أقوى أنواع النيران) .

والعجيب أنها لم تعش غير تسع سنين بعد صيحتها الأولى . وخلال هذه السنين المعتبَرة قصيرة نجحت فى أن تحوّل مشروعها من مجرد إغاثة طارئة الى منظّمة ضخمة دولية تقدم معونات ثابتة . فهى قد أنقذت ملايين الأطفال من المرض والموت ؛ وعاونت ملايين غيرهم على أن يعيشوا عيشة نافعة سعيدة . وقد كتبت لأختها دوروثى قبل أن تموت بأيام قليلة تقول : « إنى أضع كل ثقتى فى الله الذى سيرعى مشروع » « أنقذوا الأطفال » وسيدعمّه فى المستقبل » .

ولقد آمنت إيجلانتاين بالمستحيل وسعت إليه وبلغته . حتى لقد قال عنها كونت سيسل أوف تشلوود : « إنها ضمن تلك النخبة القليلة من الرجال والنساء الذين يوصفون بحق أنهم قديسون » .

ولقد ناجى داود النبى صديقه يوناثان بتعبير رقيق : « محبتك لى أعجب من محبة النساء » (٢ صموئيل ١ : ٢٦) ، فاختبر الأطفال الجياع العراة معنى هذه المحبة النسوية بالفعل .

أم الفرح

★ ★ ★

« إن السيدة العذراء هى المرأة التى قبلت البشارة المفرحة ، وانتشت بزيارة أليصابات المبهجة ، وعاشت المهرجان الملائكى ليلة الميلاد » .

« لقد كانت هى التى أخذت كل وعود الأفراح » . ـــ عن « العذراء مثال الكنيسة » ـــ ص ١١٦

★ ★ ★

مقدمة :

لا يحلو الكلام عن المرأة من غير الكلام عن السيدة العذراء والدة الإله . فهى حواء الجديدة التى بدأت فى إبنها الحبيب خليقة جديدة . **وأحد الألقاب التى أطلقتها عليها كنيستنا المحبوبة هو تسميتها بأم النعمة . فبنات حواء تحوّلن فيها الى بنات أم النعمة** فالمرأة إذن قد نالت الفداء والتبنّى فى ذاك الذى فداها ودعاها الى نوره العجيب ، وبالتالى منحها حرية مجد « بنات » الله .

ولأن السيد المسيح جاء مولوداً من امرأة ؛ ولأنه أوحى الى متى البشير أن يسجّل أسماء أربعة من جدّاته[1] ؛ ولأنه سمح للمرأة أن تتبعه حين تنقّل مع تلاميذه من مدينة الى قرية وأن تجلس مع الجموع المصغية اليه ؛ ولأنه رضى بأن تجلس مريم أخت لعازر عند قدميه لتستقى تعاليمه منه مباشرة : لأجل هذه كلها حَقّ للمرأة المسيحية أن تحمل نير المسيح[2] هى أيضا . وهو ــ له المجد ــ قد اتّخذ من السامرية ومن المجدلية رسولتين تحملان بشارته[3] ولهذا السبب عينه نلتقى بالمرأة فى سفر الأعمال وفى بعض الرسائل وفى قصة كنيستنا القبطية الحبيبة[4] .

---

(١) جدير بالذكر أن ثلاثا منهن أمميات : فراحاب من أريحا وراعوث من موآب وتلك التى لأوريا من الحتيين ، فيكون رب المجد قد سرت فى شرايينه دماء أممية .

(٢) متى ١١ : ٢٩ حيث يوصى الرب نفسه من يتبعونه بأن يحملوا نيره .

(٣) يوحنا ٤ : ٣٩ ــ وبصدد لقاء الرب مع السامرية نتساءل : أليس موقف الكثيرين الى الآن موقف من « كانوا يتعجبون من أنه يتكلم مع امرأة » ؟ يوحنا ٤ : ٢٧ ؛ متى ٢٨ : ٩ ــ ١٠ « تقدّمتا وامسكتا بقدميه وسجد تاله ومرقس ١٦ : ٩ ــ ١٠ ويوحنا ٢٠ : ١٦ ــ ١٨

(٤) أعمال ١ : ١٤ و ٥ : ١٤ و ٨ : ٣و١٢ و ٩ : ٢ و ١٦ : ١٣ و ١٧ : ٤و١٢ و ٢٢ : ٤ ؛ رومية ١٦ : ١ ــ ٥ و ٦ و ١٢ و ١٣ و ١٥ ؛ فيلبى ٤ : ٣ ؛ ١ تيموثيوس ٢ : ٩ ــ ١٠ عبرانيين ١١ : ٣٥ ؛ رؤيا ١٢ : ١ ــ ٦ ؛ قصة الكنيسة القبطية (للمؤلفة) حـ ١ ص ٢٤٨ و ٢٩٧ ــ ٣٠٠ و ٣١٩ ــ ٣٢٢ و ٣٥٥ ــ ٣٥٦ ، حـ ٣ ص ١٩ و ١٩٥ ــ ١٩٦ ، حـ ٤ ص ٣٣٣ ــ ٣٣٤ ، حـ ٥ ص ٨٦ و ٨٨ و ١٤٤

وقد يجد البعض أن سرد هذه الوقائع لالزوم له لأنه معروف . ولكن على الرغم من كونه معروف ، وعلى الرغم من سماع الوقائع المذكورة فى القراءات الكنسية ، فإنه من الضرورى وضع النقط فوق الحروف من آن لآخر لتذكير القارئين والقارئات بضرورة تناغم الإيمان مع الأعمال . فقوة المسيحيين الأوائل ، وسرعة اشتعال القلوب بالنداء الذى بشّروا به يرجعان الى أن أعمالهم كانت متناغمة مع تعاليمهم . والشهداء أيضا فى شدائدهم وعذاباتهم اكتسبوا الكثيرين من مضطهديهم لهذا السبب عينه .

والسيدة العذراء أم الفرح هى فى عمق الواقع أول كارزة . ألم تذهب بسرعة الى بيت زكريا ؟ ويرى غالبية المفسّرين أن زيارتها هذه صورة لعظم تواضعها . وهذا صحيح . ولكنّ البشير يوضّح لنا أن أليصابات أدركت بالروح القدس أن هذه العذراء هى أم ربّها[1] . وحين رنّ صوت أم الرب فى أذنىّ تلك التى كانت مدعوّة عاقراً **ارتكض الجنين بابتهاج فى بطنها . لقد اهتزّ يوحنا السابق الصابغ ــ حتى وهو داخل بطن أمه ــ بالفرح الذى رنّ فى صوت والدة الاله فسرى من صوتها إليه** . فأم النعمة سارعت الى إعلان البشرى لأهل بيت زكريا . وفى هذا البيت ، وأمام كل من سارعوا لتحيتها ، ترنّمت بتسبحتها تعظيماً لاسم الرب . وابتهاجاً بالله مخلصها ــ **فأعلنت بنفسها أنها أم الفرح أيضاً** .

ومذاك وهى لاتكفّ عن أن تنادى على كل المؤمنين باسم ابنها الحبيب بالنداء عينه : وهى قد كررته بتعبير مختلف فى عرس قانا الجليل : « مهما قال لكم أن تفعلوا فافعلوا » .

وليس من شك فى أن وجودها بين الرسل بعد الصعود المجيد كان فى حد ذاته كرازة عليا . ففى شخصها الوقور المتفكّر ، وفى وجهها المتهلل ، وفى

---

(١) هنا يجب أن نذكر أن أول من حلّ عليهم الروح القدس هما السيدة العذراء ونسيبتها أليصابات ــ وهذا ضمن الأدلة العديدة التى قدّمها لنا رب المجد عما نالته حواء الجديدة من بركة غامرة اكتسحت اللعنة القديمة .

صمتها الملىء بالكلام ، علّمت الرسل أنفسهم ، وبخاصة وهم منتظون تحقيق الوعد بحلول الروح القدس . وقد يظن البعض أن عشرة أيام ـــ ما بين الصعود والعنصرة ـــ فترة قصيرة . ولكنّ الزمن لاقياس له فيما يختص بالأمور التى تعلو فوق الزمن .

فالتأمل فى السيدة العذراء ، والتطلّع نحوها ، والإصغاء الى توجيهاتها ـــ كل هذا من العمليّات البنّاءة لنفوسنا المستنهضة لجهادنا المسَجِعّة لنا على السعى مهما كانت العراقيل ـــ وبخاصةٍ لنا نحن بناتها .

ولقد علمتنا كنيستنا القبطية أن نكرّم السيدة العذراء . وهى فى الوقت عينيه قد علمتنا أنها لم تولد بطبيعة مقدسة لتتقبّل حلول الابن الكلمة فى أحشائها ؛ بل تعلمنا عن يقين بأنها وُلدت كباقى الناس من أبٍ هو يواقيم وأمٍ هى حنة . فهى كجميع الناس قد وُلدت حاملة لخطية آدم . وهذا الواقع مذهل فى حد ذاته لأن معناه أن الكلمة المتجسد عاش فى أحشاء امرأة « إنسانة » . **ولأنه رضى بهذا التجسد من امرأة « إنسانة » فقد منحنا بالتالى إمكانية حلوله فى داخلنا : وهذا ما يفعله كلما تناولنا جسده ودمه الأقدسين** . فلو أن السيدة العذراء كانت قد وُلدت بطبيعة مقدسة غير مشوبة بخطية آدم لما استطاع إنسان غيرها أن يحصل على سكنى السيد المسيح فى عمق نفسه .

والتعليم الأرثوذكسى هو أنها حين أعلنت لفورها أنها أمَة للرب حلّ عليها الروح القدس[1] **فقدّسها وأعدّها لتجسد إبن الله منها** . وتعلن الكنيسة فى ثيئوتوكية السبت هذا الواقع فى التعبير التالى : « والروح القدس ملأ كل موضع منك : نفسك وجسدك يا مريم أم الله » . وبذلك جعلها قديسة فى كل شىء ـــ لابمعنى « كلية القداسة » لأن هذا التعبير يستلزم أن تكون مقدسة منذ الأزل والى الأبد . وهذه القداسة الأزلية الأبدية لاتنطبق إلا على الثالوث الأقدس كما

---

(١) ومع ذلك فقد كان هذا حلولاً خاصاً لهيئتها لتجسد ابن الله منها . فنحن نقرأ أنها كانت فى العلية مع التلاميذ يوم العنصرة فحلّ عليها الروح القدس حين حل عليهم . وهذا الحلول يوم العنصرة هو علامة إلهية على أن ابن الله تجسّد من امرأة إنسانة

نؤكدها فى كل قداس إلهى حين نهتف : « **واحد هو الآب القدوس واحد هو الابن القدوس واحد هو الروح القدوس ــ آمين** »[1]

ولأن السيدة العذراء امرأة « إنسانة » فقد أعطت للقدوس المولود منها جسداً إنسانيا مساوياً لطبيعتنا . وحين لبس الابن الوحيد هذا الجسد جعله هو بنفسه جسداً خاليا من الخطية لأنه كلى القداسة : قدوس من الأزل والى الأبد . وتعلن الكنيسة هذا الواقع فى ثيؤتوكية الخميس فترنّم : « كل عجنة البشرية أعطتها بالكمال لله الخالق كلمة الآب ــ هذا الذى تجسّد منها بغير تغيير فولدته كإنسان ودُعى اسمه عمانوئيل » .

لهذا كله فالكنيسة الأرثوذكسية تكرّم السيدة العذراء وتعطيها التسبيح والتمجيد ولكنها لا تعبدها وتؤكد بأنها لم تشارك فى عملية الفداء بل كانت المجرى فقط الذى انسكب منه الفداء الى الإنسان : كانت نقطة التلاقى بين الله وبين الإنسان . وذاك الذى حلّ فيها هو الذى رفعها من درجة الأمَة الى كرامة الأم . ولهذا السبب عينه فالكنيسة الأرثوذكسية نادراً ماتصوّرها وحدها ، إنما تصورها باستمرار حاملة طفلها الإلهى على ذراعها الأيسر توكيداً الى أن كرامتها وتكريمها ترجعان الى كونها والدة الإله = الثيؤتوكس[2] .

١ ــ من أبدع التشبيهات التى قدّمها لنا الآباء بين الخليقة القديمة وبين الخليقة الجديدة ذلك الترابط الذى شاء الخالق أن يوجده بين العمليتين . فقالوا إن الله ألقى على آدم سباتا ثم أخذ حواء من ضلعه خلال هذا السبات . كذلك بعد أن استودع السيد المسيح روحه فى يدّى الآب طعنه لونجينوس[3] بحربه فى

(١) وهذا الهتاف رد على قول الكاهن الخديم « القدسات للقديسين » معلنا التحّول الفعلى للخبز والخمر الى الجسد والدم الأقدسين . وبهذا الرد يؤكد المؤمنون أنهم إنما يتناولون السر المقدس بنعمة التقديس التى أغدقها عليهم الفادى الحبيب

(٢) راجع كتاب « العذراء القديسة مريم : تيئوتوكس ، للأب متى المسكين ص ٧٦ ــ ٧٨ ؛ أما صورها بمفردها التى نراها فى عدد من كنائسنا الآن فهى صور وليست أيقونات كما إنها مخالفة لعقيدتنا الأرثوذكسية ، وهى فن كاثوليكى .

(٣) كان هو الضابط الرومانى الذى وُضعت عليه مراقبة عملية الصلب . ومما تجدر الإشارة اليه أنه قد صار شهيداً على إسم السيد المسيح لما رآه من عجائب فى ذلك اليوم الرهيب .

جنبه . ومن الجنب المجروح الذى سال منه الدم والماء وُلدت الكنيسة . صحيح أن الفارق لايقاس بين آدم الأول الذى لم يشعر إطلاقا باستخراج الخالق لضلعه ولم يدر بما جرى إلا حين قدم الله له حواء كمعين نظيره . فى حين أن آدم الثانى ـــ وإن يكن قد طُعن بعد موته ـــ إلا أنه شاء هذه الطعنة بإرادته كما **شاء بإرادته أن يلد الكنيسة بدمه ومائه[1] ليجعل منها الأم الشاملة لجميع المؤمنين به على مدى الأجيال . ولما كانت مريم العذراء تجسيداً شخصيا للكنيسة فهى حواء الجديدة التى انبثقت من ذلك الجنب المفتوح** . والبتولية التى تزينت بها والدة الإله هى مثال لبتولية قلب الكنيسة التى تلد أولادها بتغطيسهم فى جرن المعمودية . وهى عذراء أيضاً لأنها الجسد السرّى للسيد المسيح .

والسيدة العذراء لكونها أم المسيح هى أمنا جميعاً بمنحة منه له المجد . وبهذه الأمومة الشاملة لكل المؤمنين أعلن لنا بولس الرسول أن المسيح هو بكر السيدة العذراء هو بكر الخلائق . وهذا هو التوضيح الصريح لقول البشير عن أن القديسة مريم « ولدت ابنها البكر » ـــ أى إنه بكرنا جميعا نحن المؤمنين باسمه القدوس .

٢ ـــ ولأن السيد المسيح جعل من أمه أماً لكل من يؤمن به ، فهو قد جعلها بذلك رمزاً للكنيسة أمنا الروحية والكنيسة هى فى الوقت عينه عائلة أولاد الله الذين أصبحوا بالتبنّى إخوةً للسيد المسيح . ومن طريف التشبيهات الحديثة **ما قاله أحد الآباء من أننا نلنا هذا التبنّى « بنقل الدم » : دم الابن البكر الى إخوته على مدى الأجيال .**

---

(١) هنا واقع مذهل للتشارك الذى تفضّل فمنحه للمرأة : فهى تنزف وتعرق لتلد

ولتقريب الشبه بين السيدة العذراء وبين الكنيسة رتّبه أحد الآباء كما يلى :

والدة الإله	الكنيسة الأم
١ ــ ولدت ربنا يسوع المسيح	تلد الأولاد بالمعمودية على مرّ الأيام
٢ ــ حبلت وولدت بالروح القدس	بفاعلية الروح القدس فى الأسرار تلد أعضاء الجسد السرّى
٣ ــ دائمة البتولية	حفظها عذارويتها من أفكار العالم
٤ ــ هى أمة الرب بتواضعها	والتطويب الأول فى الكنيسة هو المسكنة بالروح
٥ ــ الإيمان والتسليم الفورى للمشيئة الإلهية	التمسك بالإيمان والتسليم لمشيئة الله هما مصدر قوى الكنيسة
٦ ــ جاز السيف فى قلبها	الكنيسة عاشت تحت الاضطهاد والآلام
٧ ــ صمتها وهدؤها وثقتها كان لها التأثير البعيد على الجميع	وعمل الكنيسة هو عمل الخميرة التى يتم فى هدوء وخفاء
٨ ــ حملت البشارة من البداية	كرزت وعلّمت منذ أن تلقّت أمر السيد المسيح
٩ ــ شفيعة مؤتمنة لكل من يستنجد بها	تصلى يوماً بعد يوم ــ لامن أجل المسيحيين فقط بل من أجل العالم كله[١]

(١) العذراء مثال الكنيسة ، للراهب ماكس توريان تعريب القمص بيصا السريانى ص ٦

٣ ــ وعلى أساس هذه الأمومة الروحية التى منحها السيد المسيح لأمه العذراء من أعلا الصليب **فالكنائس الأرثوذكسية لاتصوّرها إلا وهى حاملة ابنها الإلهى على ذراعها الأيسر**[١] فالتطويب الذى تنبأت هى به ورأته على مر الأجيال ترنّمت هى نفسها به بعد أن قالت لهّا أليصابات « طوبى للتى آمنت أن يتّم ما قيل لها من قِبل الرب » . فأعلنت بترنيمتها هذه أن الأجيال ستطوّبها لهذه الأمومة العجيبة الفريدة منذ البدء والى الدهر .

وليس من شك فى أن السيدة العذراء نفسها تفرح لهذه الطاعة للإرادة الإلهية التى تعبّر بها الكنائس الأرثوذكسية عن محبتها وإكرامها لها بوصفها « والدة الإله[٢] والأيقونة ليست بالمجال الوحيد لهذا التعبير : فالصلوات والألحان الشعائرية كلها تعبّر عن هذا التعظيم كما تعبّر عنه الألقاب العديدة التى تنادى بها هذه الكنائس العذراء مريم : فهى أم النور . وأم النعمة . وهى الشفيع الأكرم عند ابنها ... وحتى الألقاب التى لاتعبّر صراحة عن هذه الأمومة العظمى تعبّر عنها ضمنا إذ هى مأخوذة من الكتاب المقدس مباشرة . فهى ــ مثلا ــ فلك نوح ، وهى العليقة المشتعلة دون احتراق والفلك يحمل ثمانية أنفس كانوا نواةً لخليقة جديدة ؛ والعليقة صورة لحلول نار اللاهوت داخل الحشا البتولى . وهكذا نرى أن التكريم الذى ترفعه الكنائس الأرثوذكسية منصبّ كله على أمومتها : أمومتها لابن العلى ثم لجميع الذين نالوا التبنّى بالنعمة الإلهية الممنوحة لهم من هذا الابن الوحيد الجنس الذى هو وحده ابن الله بالطبيعة الجوهرية . ولايفوتنا أن نذكر أن البابا كيرلس عامود الدين هو الذى كتب مقدمة قانون الايمان فبدأها بقوله : « نعظمك ياأم النور الحقيقى ونمجدك أيتها العذراء القديسة مريم والدة الإله ... »

---

(١) مزمور ٤٤ من صلوات الساعة الثالثة فى الأجبية

(٢) إن كنيستنا القبطية المحبوبة هى أول من لقّب السيدة العذراء بوالدة الإله (ثيوتوكس) . بدأ هذا اللقب فى الانتشار فى عهد الأنبا ثيوفانس (البابا ال ١٦ ، سنه ٢٧٤ ــ سنه ٢٨٥م) ودعّمه الأنبا كيرلس عامود الدين (البابا ال ٢٤ ، سنه ٤٠٤ ــ سنه ٤٣٥م) ــ راجع « قصة الكنيسة القبطية » حـ ١ ص ١١٩ ــ ١٢٤ و ٤١٩ ــ ٤٦٦ ــ الطبعة الثالثة .

ولقد كتب هذا البابا الكبير عدداً من الثيئوتوكيّات (أى تسابيح للثيئوتكس) خاطب فى الرابعة منها السيدة العذراء بقوله : « السلام للمعمل الذى اتحدت فيه الطبيعتان. أى الإلهية والبشرية » .

٤ ــ وثمة صفة أساسية تغلب على كل ما ورد فى الأسفار الإلهية بخصوص السيدة العذراء هى الفرح . فجدير بنا أن نتأمل هذا التركيز المتكرر فى هذه الأيام التى شاعت فيها بيننا صورة العذراء الحزينة ــ كأن الحزن هو صفتها الأساسية ! وهذه الصورة بعيدة تماماً عن الكتاب المقدس وهى بعيدة أيضا عن الروح الأرثوذكسية . **فكلمة « شيرى » (السلام) التى حيّابها الملاك سيدتنا تتضمن معنى الفرح** . ولهذا نترنّم فى اللحن الكنسى بقولنا : « **إفرحى يامريم العبدة والأم** ... » ثم يعطينا الآباء السبب الجذرى لهذا الفرح باستكمالهم « **لأن الذى فى حضنك الملائكة تسبحه** »

ولنتأمل بعض ما قيل فى الأنبياء وفى المزامير عن سمة الفرح الملازمة لأم النعمة . وبهذا التأمل نجد أن الله كثيراً ما شبّه شعبه فى العهد القديم بامرأة وقد بلغ هذا التشبيه قمته فى « ابنة صهيون » . فيقول لنا أشعياء النبى : « هوذا الرب أخبر الى أقصى الأرض قولوا لأبنة صهيون هوذا مخلصك آتٍ . ها أجرته معه » بينما يؤكد صفينا هذا الفرح فيقول : « ترنّمى ياابنة صهيون » . ويزداد التوكيد على فم زكريا : « ترنّمى وافرحى يابنت صهيون لأنى هاأنذا آتى وأسكن فى وسطك ... إبتهجى جداً ياابنة صهيون »[1] . **والفرح والابتهاج والترنّم هى سمات هذه النداءات كلها . وهى نابعة من دورين رئيسيّين : ا ــ دور سرائرى هو اتحاد العذراء ابنة صهيون بإلهها ؛ ب ــ دور مجيّىء هو أمومتها التى تحققت بالفعل حين تجسّد المسيا منها .**

وهذا الفرح ترنّمت به الملائكة ليلة الميلاد المجيد إذ هتف الملاك : « ها أنا أبشّركم بفرح عظيم ... مثبتاً تحقيق النبّوات المنادية بالفرح .

---

(١) أشعياء ٦٢ : ١١ ، صفينا ٣ : ١٤ ، زكريا ١ : ١٠ و ٩ : ٩

صحيح إنه قيل عن المسيا إنه رجل الأوجاع ومحتمل الآلام . وصحيح أن سمعان الشيخ أنبأ السيدة العذراء بأن سيفاً سيجوز فى نفسها . **ومع ذلك فقد شبّه الفادى الحبيب الآلام لتلاميذه بآلام المخاض التى يعقبها الفرح** . كما أنه حين أنذر تلاميذه بم سيلاقون من ضيق استتبعه بقوله : « ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم »[1] . وهنا أيضا نجد أن كلمة « ثقوا » فى أصلها اليونانى هى « افرحوا »

ونجد أيضا أن الفرح هو السمة الغالبة على المسيحيين الملتصقين باستمرار بإلههم . فنراه فى التلاميذ . فالسبعون حين أرسلهم رب المجد ليكرزوا « رجعوا بفرح »[2] . وعندما جلد رؤساء الكهنة الرسل منعاً لهم من الكرازة عاد المجلدون « فرحين »[3] . وبولس الرسول ورفيقه سيلا حينما كانا فى السجن وأرجلهما فى المقطرة كانا يصليان ويسبحان الله على مسمع من المسجونين[4] .

فالكتاب المقدس بعهديْه القديم والجديد يركز على الفرح حتى عند الكلام عن الحزن . لأن الرجاء فى الله متفائل ، والتفاؤل يستتبع الفرح . وتقرأ تعبيراً غايةً فى العمق فى حديث بولس الرسول للكورنثيين حيث يقول : « ولكن لنا هذا الكنز فى أوان خزفية ليكون فضل القوة لله لامنّا . مكتئبين فى كل شىء لكن غير متضايقين . متحيّرين لكن غير يائسين . مضطهدين لكن غير متروكين . مطروحين لكن غير هالكين »[5]. **والاستدراك فى كل حالة يتضمّن فى طيّاته الرجاء ليقينّى فى عناية الله وبالتالى فى الفرح بهذه العناية على الرغم من كل الأحداث** .

٥ ــ هذا موقف الرسل الأطهار ــ فماذا كان موقف الشهداء والمعترفين ؟ وحين نتمعّن مواقفهم علينا أن لانكتفى بمجرد القراءة أو الاستماع أو حتى الاعتزاز . لأننا متى تمعّنا هذه المواقف **لن نندهل أمام بسالتهم فقط بل سنندهل أيضا وبالأكثر من فرحهم** . ويكفى تقديم ثلاثة أمثلة دليلاً على هذا الفرح .

(١) يوحنا ١٦ : ٢١ ــ ٢٢ و ٣٣
(٢) لوقا ١٠ : ١٧
(٣) أعمال ٥ : ٤١
(٤) أعمال ١٦ : ٢٥
(٥) ٢ كورنثوس ٤ : ٧ ــ ٩

المثل الأول عن عروس لم يمضِ على زواجها غير أسبوعين استحضرها الوالى أمامه . وبعد استجوابها أمر بأن يضعوا جمرة نار فى فمها كى يسكتها نهائياً . فهتفت لوقتها : « يالفرحتى ! فإن جمرةً واحدة مسّ بها السيرافيم فم أشعياء النبى قد نزعت إثمه[1] ، فأرجوكم أن لاتكتفوا بوضع جمرة واحدة فى فمى بل كومّوا الجمر فوق كل جسدى ! » ولشدة الدهشة التى استولت على الوالى أمام هذه الفرحة التلقائية وهذا الطلب المُباغِت غيّر رأيه وعذبّها بوسيلة أخرى . وهذه الشابة هى وزوجها انتهى بهما الأمر الى تعليقهما على صليبيّن ورأساهما الى أسفل . وفى هذا الوضع الذى يمكننا تصوّر مالازمه من آلام كانت هى وزوجها يتحدثان بعظائم الله ويشددان عزائم الواقفين حولهما . وظلّا على فرحهما الى أن نزل ملاك من السماء واستلم روحيْهما الطاهرتين وصعدا بهما الى الفردوس[2] .

والمثل الثانى عن ثلاث عذارى ــ بنات شهيد اسمه مقيطف ــ خرجن مع أبيهن حين قبض الجند عليه وعليهن ، وسيقوا كلهم الى ساحة الاستشهاد . ويقول لنا مؤرخهم إن **العذارى الثلاث تقدّمن الى جلّاديهن وهن مزغردن فى فرح وتهليل كأنهن ذاهبات الى عرس** ! وكان ذلك فى عهد الأنبا متاوس الكبير (البابا ال ٨٧ ، سنه ١٣٧٠ ــ سنه ١٤٠١م)[3]

أما المثل الثالث فيتعلق برجل من بلدة هور (مركز ملّوى) اسمه صليب عاش أثناء باباوية الأنبا يؤنس الثالث عشر (البابا ال ٩٤ ، سنه ١٤٧٥ ــ سنه ١٥١٥م) كان يستشفع باستمرار بالسيدة العذراء ضارعاً اليها أن تهيء له سبيل الاستشهاد . فظهرت له فى حلم وأعلمته بأن ضراعته قد أستُجيبت وأن الملاك ميخائيل سيقوم بحراسته الى أن ينال اكليل الشهادة . فتهلل بهذا الخبر وضاعف من أصوامه وصلواته . وأخذ يتنقل بين البلاد ليشدد العزائم لأن تلك الفترة امتلأت بالضيق والاضطهاد . ومإن سمع والى الصعيد عنه حتى استدعاه واستجوبه ثم أمر بضربه وبتعييره . فاحتمل فى صبر وصمت وعندما أمر الوالى برميه فى السجن حيث أخذ يصلى ويسبح الله . وأخيراً أرسله الوالى إلى القاهرة

(١) أشعياء ٦ : ٦ ــ ٧ (٢) جاءت سيرتهما فى السنكسار ليوم ٤ بؤونة

(٣) قصة الكنيسة القبطية (للمؤلفة) حـ ٣ ص ٣٧٦

ليقف أمام السلطان الغورى ورجال بلاطه وأمام ثباته على الإيمان صدر الأمر بتعذيبه ثم بإعدامه . فتقبل كل ما أصابه بالتهليل الى حد أن وجهه سطع بالنور مما جعل القبط الذين رأوه يمتلئون فرحا وسلاما . وبعد التعذيب قطع السيّاف رأسه ــ وكان استشهاده فى الثالث من كيهك ــ وهو عيد تذكار تقديم السيدة العذراء الى الهيكل[1] .

٦ ــ والسيدة العذراء يُرمَز إليها أيضا بتابوت العهد : التابوت الذى حلّ فيه قديماً مجد الله . ويعلن أشعياء هذه الحقيقة بندائه : « تهللى واهتفى ياساكنة صهيون لأن قدوس إسرائيل عظيم فى وسطك » . ويبرز لنا البشير تحقيق هذا النداء عند سرده للختان إذ قال : « ولما تّمت ثمانية أيام ليختنوا الصبى سُمّى يسوع كما تسمّى من الملاك قبل أن حُبل به فى البطن[2] » . وقوله « فى البطن » مطابق تماماً للنبوة المعلنة بأن « قدوس إسرائيل » فى وسطك » ولإعلان الله نوره من على غطاء التابوت من بين الكروبيْن[3] . فالسيدة العذراء إذن هى تابوت العهد الذى يسكن فى بطنها المخلص لكى يبدأ عهداً جديداً مع جميع من يؤمنون به ويحبونه .

إذن فليس من المعقول أن المرأة الفريدة فى تاريخ الإنسانية والتى صنع بها القدير عظائم ، ليس من المعقول أن يغلبها الحزن . نعم إن السيف جاز فى نفسها ، بل فى أعماق أعماقها ، وهى تتأمل ابنها الذى هو ابن العلى على الصليب معلّقا . **ولكّن فرح الأمومة لابد من أن يكون قد غمرها خلال السنوات التى عاشتها فى هدوء الناصرة مع ابنها الحبيب قبل أن يتركها ليؤدى عمله الفدائى العجيب الرهيب** . ولقد قال عنها الآباء إنها نقطة تلاقى الله بالإنسان فليس من شك فى أن قلبها قد أمتلأ فرحا لتفكّرها فى واقعها المذهل .

وموقف الفرح بمجىء الرب يتردد بمختلف التعبيرات ، فيهتف المرنّم : « الجبال قفزت مثل الكباش . والأكام مثل حملان الغنم » . فى حين أن كاتب

(١) « قصة الكنيسة القبطية » حـ ٣ ص ٤٠٦ ــ ٤٠٩

(٢) أشعياء ١٢ : ٦ ، لوقا ٢ : ٢١

(٣) خروج ٢٥ : ١٠ ــ ٢٢

سفر الحكمة يردد : « وثبوا كالحملان مسبّحين لك أيها الرب مخلصهم » . ونعود فنستمع الى أشعياء فى قوله : « حينئذٍ يقفز الأعرج كالإيل . ويترنّم لسان الأخرس »[1] . **وهذه كلها تعبّر عن فرحة الخلاص والتحرر ، فرحة التطلّع نحو تحقيق الرجاء ، فرحة تلاق الإنسان المخلوق مع الله خالقه .**

وهناك علامة أخرى من علامات الفرح وجد فيها الآباء رمزاً الى السيدة العذراء ، هذه العلامة هى قوس القزح[2] . وهذا القوس هو ميثاق قدّمه الله للإنسان تعهّدا منه بأنه لن يفنى الجنس البشرى **ومن عجائب الله فى تعامله مع الإنسان أنه أعطاه هذا الميثاق فى قوس جمع الألوان المختلفة فى تناسق* بديع .** فهذا القوس بمعناه وبألوانه لايمكن أن يكون الا صورة للفرح . فالإشارات والتعبيرات عن الفرح تغمر الأحاديث عن الحزن ، وتوضّح الفرحة التى يجب أن تملأ القلب لمجيء السيد المسيح المخلص .

٧ ــ ويقّدم لنا أحد الآباء مقارنة طريفة بين بشارة الملاك لزكريا وبشارته للسيدة العذراء :

١ ــ ظهر الملاك لزكريا فى مدينة أورشليم المدينة العاصمة والمقدسة أيضا	ظهر للسيدة العذراء فى الناصرة وهى قرية مغمورة قيل عنها : أمن الناصرة يمكن أن يخرج شيء صالح ؟ إذ كانت من جليل الأمم .
٢ ــ كان زكريا فى الهيكل وسط الشعب المتجمّع كله للصلاة	ومريم كانت وحيدة داخل حجرتها وبين شعب خليط من اليهود والأمميين
٣ ــ كان زكريا يؤدى الخدمة الطقسية التى يتذّكر بها الجميع الرجاء فى مجيء المسيا	والعذراء القديسة كانت منشغلة الفكر بمجيء مسيح العالم كله ، فالمسكونة المسيحية هى السِمة البارزة فى بشارة الملاك لها

(١) مزمور ١١٤ : ٤ ، أشعياء ٣٥ : ٦ و ٥١ : ٣ ، أما سفر الحكمة فهو لمشوع بن شعلخ ومن الأسفار القانونية الثانية

(٢) تكوين ٩ : ١٣

٤ ــ وقف زكريا داخل قدس الأقدس بناءً على اختياره آنذاك . فالبشارة اليه هى بشارة كهنوتية فى جوهرها أثناء عبادة طقسية	أما السيدة العذراء فقد صارت هى نفسها المكان الذى يجمع فى داخله الأقداس والكهنوت والطقوس كلهامعا
٥ ــ خرج زكريا الى الشعب فاقداً المقدرة على التكلّم ففهم الجميع أنه قد رأى رؤيا	ظلّت البشرى العظمى مجهولة من الناس ثم عرفوها تدريجاً ولجماعات جماعات
٦ ــ كان ظهور الملاك لزكريا استجابة لصلواته هو وزوجته مدى سنوات طويلة	ولكّن العذراء تلقّت البشارة نتيجةً لاختيار الله ولفيض النعمة التى ملأها بها
٧ ــ يؤكد الملاك شخصيته لزكريا : « أنا جبرائيل الملاك الواقف قدام الله »	ولكنه يركّز حديثه على البشارة بالذات وعلى ما سيعمله الله داخل مريم . فكان تقابلها مع إلهها فى عمق كيانها بغّض النظر عن كل شىء آخر[1] .

وهذه المقابلة بين البشارتين تبرز لنا أن الله قد حوّل التركيز على أقداسه فى أورشليم الى الحلول داخل عذراء يتيمة فقيرة متواصلة معه تعيش فى جليل الأمم . فحيث يسكن الله فهناك قدس الأقدس . أفلا يعلّمنا اللحن الكنسى بأن السيدة العذراء هى « سماء ثانية جسدانية » ؟ وهى لهذا بعينه قد تجمّع فيها كل المؤمنين من كل قبيلة وأمة ولسان ، لأن الله بواسطتها قد « دوّل » نفسه ! ونجد تشابهاً وثيقاً بين نص البشارة الملائكية للسيدة العذراء وبين نص إعلان الله عن حلوله فى خيمة الاجتماع قديما . وهذا التشابه هو الأساس الذى بنى عليه الآباء تعليمهم عن تشبيه السيدة العذراء بمسكن الله . فالبشير يصف لنا مقابلة الملاك للقديسة مريم وردّه عليها حين أبدت دهشتها فى سؤالها : « كيف يكون لى هذا وأنا لست أعرف رجلاً ؟ » أجابها : « الروح القدس يحلّ عليك وقوة العلى

(١) عن كتاب « العذراء مثال الكنيسة » للراهب ماكس ثوريان ترجمه القمص ويصا السريانى ص ٤٩ ــ ٥١

تظلّلك ، لذلك فالقدوس المولود منك يدعى ابن الله » . ـــ فماذا قال الله لموسى ؟ إنه أوضح كيفية بناء خيمة الاجتماع بالتفصيل . وبعد أن أطاعه وأكمل العمل : « غطّت السحابة خيمة الاجتماع . وملأ بهاء الرب المسكن ... »[1] . **فكما غطّت السحابة النيّرة المسكن بظلالها حتى ملأه مجد الرب (الشاكيناه) ، هكذا ظلّلت قوة العلى القديسة مريم وحلّ عليها الروح القدس** . ومما تجدر الإشارة اليه أن كلمة « يظلل » بالعبرية هى « شاكان » ، وهى مستعملة فى النصيّن : الروح القدوس وقوة العلى يظللان مريم فتصبح هذه العذراء المختارة هى « الشاكيناه » .

وهكذا بتمعّننا الأسفار الإلهية وبالربط بينها نزداد تعجّبا أمام تدبير الله الخفّى الذى استعُلن لنا فى تجسّد الكلمة فنهتف مع المرنّم : « ما أعجب أعمالك يارب ! كلها بحكمة صنعت »[2] .

وإذا ما ازددنا تمعّنا تحوّل تعجبنا الى ذهول أمام عمل الله فى الكنيسة ! وفى هذا الشأن يقدّم لنا أحد آبائنا المعاصرين توضيحا عجيبا عما فى الكنيسة فيقول : « والكنيسة فى الانجيل وفى فكر المسيح له المجد عروس » ، إنها العروس التى مهرها بدمه المسكوب على عود الصليب ، وقدسّها ، وأفاض عليها بركته الإلهية . كما أن الكنيسة فى سفر الرؤيا[3] ينبوع ماء حى كمعلمها بحسب الروح الذى فيها والروح والعروس يقولان تعال ... ومن يعطشْ فليأتِ ... » فإذا ما درنا بأبصارنا حولنا نرى أن العالم ملىء بمعارف وعلوم وايديولوجّيات بلا عدد ، ولكنّ نبعاً واحداً استودعه الله الكنيسة ينبع الى حياة أبدية . إنه النبع الذى أعلن عنه السيد المسيح للسامرية حين قال : « كل من يشرب من هذا الماء يعطش . أما من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فلا يعطش الى الأبد . بل الماء الذى أعطيه

---

(١) خروج ٤٠ : ٣٤ ـــ ٣٥

(٢) مزمور ١٠٤ : ٢٤ ، أنظر أيضا أشعياء ٤ : ٥ . والمزمور المذكور قد تردد فى مصر الفرعونية قبل أن يردده المرنّم بأجيال ، ويعرف « بتسبحة إخناتون » .

(٣) رؤيا ٢٢ : ١٧ ، طالع أيضا سفر نشيد الأنشاد

يصير فيه ينبوع ماء ينبع الى حياة أبدية[1] . **لقد استودع الله الكنيسة سر جسده . وجسد السيد المسيح ميزته العظمى فى أنه لايزال قابلاً كل يوم للموت والقيامة فى الكنيسة ... وفى الموت والقيامة تحيا أجيال وراء أجيال عبر العصور المتصلة بالملكوت »**[2].

٨ ــ وهناك صورة أخرى يُستعلَن فيها مجد الله هى حادثة التجلّى : ففى ثلاث مواضع تتضّح الوقائع عينها : فى خيمة الاجتماع يملأ الرب المسكن بمجده الى حد أن موسى لم يُعُد قادراً على الدخول الى داخله ؛ وفى البشارة ينزل القدوس ابن العلى ليسكن فى أحشاء مريم : المكان الجديد لسكنى الله ؛ وفى التجلّى يعلن الله المجد ذاته أمام أعين ثلاثة من تلاميذه فيقول لنا بطرس الرسول عنه : « ... أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » . بينما يعبّر لنا بولس الرسول عن الحقيقة بعينها فى كلماته : « ... الذى هو (أى المسيح) بهاء مجده ورسم جوهره ... »[3] .

ولم يفهم الرسل معنى المجد الذى استُعلن لهم على الجبل المقدس إلا بعد أن قام رب المجد : **إنهم رأوا حجاب الهيكل ينشقّ من فوق إلى أسفل**[4] **بعد أن استودع السيد المسيح روحه فى يدىّ الآب . وهذا التمزّق إعلان إلهى على أن قدس الأقداس قد سرى الى العالم بأسره** . وكما أعلن الرسولان بطرس وبولس عن المجد الأسنى وصفه لنا يوحنا الحبيب بأسلوبه العذب : « ... والكلمة حلّ فينا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءً نعمةً وحقاً »[5] .

وهذه الكلمات التى يهتف بها الرسل كترنيمة مفرحة تعلّمنا أن الله العلى الفائق على كل فكر الساكن فى الأعالى هو بذاته القريب جداً منا المتآلف معنا ، بل إنه قد أتخذ من كل واحد فينا هيكلا لسكناه ! فهل هناك فرح أعظم وأكمل من هذا ؟

---

(١) يوحنا ٤ : ١٣ ــ ١٤

(٢) « الوحدة الحقيقية ستكون إلهاماً للعالم » للأب متى المسكين ص ١٢ ــ ١٣

(٣) ٢ بطرس ١ : ١٧ ــ ١٨ ، عبرانيين ١ : ٣

(٤) متى ٢٧ : ٥١ ، مرقس ١٥ : ٣٨ ، لوقا ٢٣ : ٤٥

(٥) يوحنا ١ : ١٤

وننتهى بهذا الترابط بين الأسفار الإلهية الى أن السيدة العذراء قد تركّز فى أعماقها كل شعب إسرائيل بتطلّعاته نحو المسيا الى جانب أنها رمز لسر الكنيسة المقدسة : كنيسة العهد الجديد . **إنها ابنة صهيون وهى فى الوقت عينه المرأة المتسربلة بالشمس . إنها الخيمة حيث يسكن الله وسط شعبه ، وهى المثال الفريد الذى هو نقطة الانتقال من إسرائيل الى الكنيسة ألم يقل الآباء عنها انها نقطة تلاقى الله بالانسان ؟**

وهذا التحوّل الذى جعل من السيدة العذراء المثال الفريد للانتقال من إسرائيل الى الكنيسة قد تحقّق بالفعل حين حمل الرسل بشرى الفداء الى الأمميين ــ فنسمعه صريحا فى قول السيد المسيح للمرأة السامرية : « ... صدّقينى إنه تأتى ساعةٌ لافى هذا الجبل ولا فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يُسجد فيه ... تأتى ساعة وهى الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق . الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا »[1] .

فالكنيسة ــ هذه الكائنة من أقاصى الأرض الى أقاصيها ــ أصبحت مسكناً لله الحالّ فيها بروحه القدوس . **وبعد أن حملت السيدة العذراء ابن الله العلى فى أحشائها تحمله الكنيسة منذ بدايتها والى انقضاء الدهور . بل إنها ــ فى سر الإفخارستيا ــ تحمل جسد المسيح المقدس ودمه الزكى فى واقعيّتهما وتغذى المؤمنين بهما لكى تجعلهم يثبتون فيه وهو يثبت فيهم .**

٩ ــ ويحدّثنا الرآئى عن المرأة المتسربلة بالشمس التى وقف التنّين مقابلها كى يتيلع ابنها العتيد أن يرعى الأمم . ولكنّ التنين طُرح الى الأرض . أما المرأة فأُعطيت جناحىّ النسر العظيم لكى تطير الى البرية فغضب التنّين وعمل حرباً مع باقى نسلها (المرأة) الذين يحفظون وصايا الله وعندهم شهادة يسوع المسيح[2] .

---

(١) يوحنا ٤ : (٢ ــ ٢٤ ، وجدير بنا أن نذكر أن السيد المسيح أعلن هذه الحقائق الروحية للمرأة السامرية قبل أن يعلنها لتلاميذه

(٢) رؤيا ١٢

ويرى الآباء فيما قاله الرآئى هنا صورة للسيدة العذراء وللكنيسة أيضا . فالتنين ــ لجهله بحقيقة الكلمة المتجسد ــ تقدّم اليه ليجربه . ولم تكن التجربة فى البرية وبعد الصوم بالمرة الوحيدة التى حاول فيها الشيطان أن يحارب السيد المسيح . لأننا نرى إشارة واضحة الى هذه الحرب فى انتهار الرب لبطرس حين اعترض على وجوب آلام الفداء إذ قال له : « اذهب عنى ياشيطان ... » وهى الكلمات بعينها التى قالها للمجّرب فى البرية[1] . واستّمر التنين فى محاربة نسل المرأة كما أعلن الرآئى ، ومازال مستمراً فى هذه المحاربة .

أما محاربة التنّين للكنيسة فقد شنّها منذ أن بدأ الرسل كرازتهم ؛ وظل فى قتاله ضدهم فى كل جيل وفى كل بلد ؛ وهو مازال فى محاربته للكنيسة الى الآن . ألم ينذر السيد المسيح رسله الأطهار ، بعد إعطائهم عهده الجديد ، بأنه « تأتى ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدّم خدمةً لله ؟[2] ونرى الى أى حدٍ تمّ هذا القول إذا نحن تتبّعنا تاريخ كنيستنا المحبوبة وتأملنا حياة الشهداء والمعترفين . ولكن ألم يوصِينا يعقوب الرسول قائلًا : « إحسبوا **كل فرح** يا إخوتى حينما تقعون فى تجارب متنوّعة » ؟[3] ويذهب القديس بولس الى أبعد من هذا فيقول : « ... نفتخر أيضا فى الضيقات »[4] ويدعّم أقواله لأهل رومية بندائه الى الكورنثيين الملىء بالثقة : « لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشىء لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديا . ونحن غير ناظرين الى الأشياء التى تُرى بل الى التى لا تُرى . لأن التى تُرى وقتية وأما التى لا تُرى فأبدية »[5] ومما يزيد ذهولنا أمام استخفاف رسول الأمم « بخفة ضيقته » أنه ذاق من الضيقات أشكالًا وألوانا . ويكفى أن نقرأ الكشف الذى قدّمه هو عن نفسه الى الكورنثيين دفاعاً عن رسوليّته لنبهت أمام احتماله .[6]

والهدف من ذكر توصية الرسل لنا بالفرح والافتخار هو التوكيد على الفكرة عينها من أن الفرح تغلّب على الحزن فى حياة السيدة العذراء ومنها فى حياة الرسل وجميع محبىّ الفادى الحبيب الذين عاشوا والذين استُشهِدوا من أجل اسمه القدوس والذين قاسوا العذابات وظلّوا على ولائهم له .

---

(١) مرقس ٨ : ٣٣ ، لوقا ٤ : ٧ (٢) يوحنا ١٦ : ٢ (٣) يعقوب ١ : ٢
(٤) رومية ٥ : ٣ و ٨ : ١٨ (٥) ٢ كورنثوس ٤ : ١٧ ــ ١٨
(٦) ٢ كورنثوس ١١ : ٢١ ــ ٢٧

ومن أجمل التعبيرات عن الفرح الروحى تلك التسبحة التى هتف بها أشعياء النبى لإنها صورة لأعلا درجات الطرب الذى يغمر النفس فى تغنّيها بالله ، فيقول : « فرحاً أفرح بالرب . تبتهج نفسى بإلهى . لأنه قد ألبسنى ثياب الخلاص . كسانى رداء البر مثل عريس يتزيّن بعمامة . ومثل عروس تتزين بحُليّها . لأنه كما أن الأرض تُخرج نباتها ، وكما أن الجنة تنبت فروعها . هكذا السيد الرب ينبت براً وتسبيحا أمام كل الأمم . »[1]

فهل هناك تعبيرٌ أقوى إعلانا عن الفرح ؟

وفى هذا التسبيح رأى أشعياء بعين النبوّة تلك المختارة التى أعلنت لفورها تسليمها للإرادة الإلهية ، فظللتها قوة الله وجعلت فيها تركيزاً لكل التلهّفات والأشواق .

وكما ترنّمت القديسة مريم بالبهجة هكذا تسبّح الكنيسة ربها وفاديها . فهى تنادى : « ياالله انظر الينا . ياالله اطّلع علينا » ــ لأن النظرة الإلهية جذوة لا تخبو . وفوق هذا الرجاء الكنسى تسبّح فى تهليل واضح :

مولانا سقانا — من خمرة الحب
فدانا أحيانا — يسوع حبيب قلبى

١٠ ــ والواقع أن التركيز على الفرح الذى ملأ قلب والدة الإله وسرى منها الى قلوب محبّى ابنها الإلهى يستهدف تبديد صورة الحزن التى أصبحت شائعة فى فكرنا وأمام عيوننا بخصوصها . فلقد آن الأوان لأن نبدل صورة العذراء الحزينة **بأيقونة تلك التى هتفت : « تعظم نفسى الرب وتبتهج روحى بالله مخلصى . »**

وبعد هذا التركيز نتأمل فكرة عجيبة أبداها أحد الآباء المعاصرين : إنه يقول بأن تسبحة السيدة العذراء مصاغة فى تعبيرات ثورية ! فمن عمق إحساسها الرهيف تدافع عن حق الله ! فلقد أدركت أن محبة الله ليست كلاما على الشفاه بل هى تعاطف معه ومنه الى التعاطف مع الناس وبخاصة فى أحزانهم وآلامهم .[2]

---

(١) أشعياء ٦١ : ١٠ ــ ١١ (٢) العذراء مثال الكنيسة .. ص ٩٨ــ ١٠٣

والتجسّد الإلهى بوصفه سكنى الله داخل أمّة متواضعة تم معها معناه قلبٌ للمفاهيم الإنسانية . والكرازة بالانجيل هى بشارة التحرّر بقدر ما هى بشارة الخلاص . **فالعذراء مريم بوصفها الكارزة الأولى ، بل الملتهبة ، بإعلان البشارة المبهجة هى أول امرأة مسيحية ثائرة !** وهى بتسبحتها الثورية تهىء أفكارنا لحادثة غيْرة الرب على هيكل قدسه ــ هذه الغيرة التى جعلته يمسك بسوط ويطرد المتاجرين بالدين ويقول لهم فى غضب مذهل : « بيتى بيت الصلاة يُدعَى وأنتم جعلتموه مغارةً للصوص ! »[1]

هذه الثورة الروحية التى حوّلت الإنسان الترابّى الى مجد التبنّى لله هى بعينها التى عبّرت عنها العذراء القديسة فى تسبحتها حين أعلنت أن القدير صنع بها العظائم باختياره إياها وهى يتيمة فقيرة متواضعة . فهو بنظرة واحدة اليها ملأها نعمةً ورفعها من تواضعها جاعلًا إياها ملكة السمائيين والأرضيين . وقوة هذه الثورة الروحية وضحت فى الرسل وفى لبّاس الصليب على مدى الأجيال . فقد كان الرسل عدداً قليلا ومعظمهم من صيّادى السمك ، وبعضهم من « جليل الأمم » ، ومع ذلك فقد صاروا معلمى المسكونة التى فتنوها ![2]

ونجد مثلًا على جانب كبير من الروعة لهذا التغيير فى المفاهيم الذى نتج عن هذه الثورة الروحية المباركة التى بدأتها والدة الإله . ويتعلق هذا المثل باختيار أنيانوس ليكون البابا الاسكندرى الثانى . فهو كان إسكافيا ممن يجلسون على الرصيف لجأ اليه مرقس الرسول كاروزنا المحبوب ليخيّط له سيْر حذائه الذى كان قد انقطع . وفى لقاء الكاروز به اكتسبه الى الايمان بالفادى الحبيب . وفى فترة من الخطر رجا الشعب من البشير الباسل أن يغادر مصرنا المحبوبة الى أن تهدأ حدة غضب الحكام . فرسم أنيانوس أسقفاً ليرعى الشعب فى غيابه ، ثم عندما استُشهد أصبح الإسكافى خليفته الأولى : أى البابا الاسكندرى الثانى .

ولكى يدرك الجميع قوة هذا التحوّل الروحى ، ثم ما هو حادثٌ من فتور الآن ، إليهم ما حدث بين الكاتبة وبين سيدة زوجة للواء فى الجيش . وكان اللواء ــ قبل ثورة سنة ١٩٥٢ ــ يحمل لقب « باشا » . كانت هذه السيدة

---

(١) يوحنا ٢ : ١٥ ــ ١٦ (٢) أعمال ١٧ : ٦

تسأل عن سلسلة الباباوات الاجلّاء الذين تعاقبوا على الكرسى المرقسى . وقد حتّمت الإجابة الصحيحة ذكر الأنبا أنيانوس فى بداية الحديث وما إن سمعت أنه كان إسكافيا حتى سألت : « وهل رضى به الشعب ؟ » وبعد الإجابة بنعم عادت تتساءل : « وهل كان الباشاوات يقبّلون يده ؟ » وأصابها ذهول حين علمت أنه لم يكن هناك باشاوات بل كان هناك الأمراء والولاة ، وأن كل الذين آمنوا بالسيد المسيح من بينهم قبّلوا يد الإسكافى عن رضى وسرور ! وقبل أن يضحك أحدنا من هذه السيدة عليه أن يتريّث ليراجع نفسه ويعرف أين يقف .

إذن فلنذكر أن فى السيد المسيح « من أراد أن يكون فيكم عظيما فليكن لكم خادماً .»(١)

١١ — يقول لنا الأنبا كيرلس عامود الدين : « **يالسعادة الإنسان ! فهوذا الله يأتى الينا بنفسه** ، يأتى الينا ويعاشرنا ويتودّد الينا ، ويلبس أضعف ما فينا وهو جسدنا . لقد انعكس الوضع تماماً فلم نَعُد مهددين بالخروج من حضرته أبداً وبأى حالٍ من الأحوال . لقد أتى الينا راضيا بأن يحمل ثقل بشريتنا فيه ؛ وقد اتّحد بلحمنا وعظامنا ، فصار منا وصرنا منه ؛ يحيا فينا ونحن نحيا فيه ؛ لا نستطيع أن نخرج عنه إذ قد وُلدنا منه وصرنا من لحمه وعظامه وارثين فيه ومعه ؛ **وهو لا يستطيع أن يتخلّى عنا فقد رفع بشريّتنا معه الى السماء وسكب روحه القدوس فى قلوبنا لكى لا نحيا بأرواحنا فيما بعد بل نحيا بروحه ؛ بل بالحرى بينما هو يحيا فينا على هذه الأرض يجلس بجسدنا عن يمين العظمة فى الأعالى شفيعا وضامنا لخلاصنا الى الأبد** ... إذن فحياة الإنسان مع الله قد تحوّلت فصارت فى واقعها حياة الله مع الإنسان . وهذا هو الضمان العجيب الذى ضمنه لنا السيد المسيح بتجسده . »

فهل هناك فرح أعظم وأعمق من هذا ؟

١٢ — وإن نحن وضعنا هذا الفرح أمامنا دائما أمكننا أن ندخل فيه ، وبدخولنا فيه سنتفهّم روح ذاك الذى دعانا الى نوره العجيب . ويعلمنا البابا

---

(١) متى ٢٠ : ٢٥ — ٢٧ ، مرقس ١٠ : ٤٢ — ٤٥

كيرلس عامود الدين أيضا أنه « إن استطعنا ، ولو إلى لحظة ، أن نلمح مقدار الترابط العجيب والمدهش حقا بين تجسّد ابن الله وبين ميلادنا الروحى لعثرنا على التبادل المذهل الذى صنعه السيد المسيح فى نفسه ليعطينا بميلاده الجسدى ميلادنا الجديد السماوى ؛ بل ولعثرنا أيضا وفى الحال على علة وجودنا وإيماننا الوثيق بالتجسّد وبالروح القدوس وبالكنيسة كمصدر جديد وباب مفتوح وطريق حى يرفعنا رفعاً الى الحياة الأبدية . إن ميلاد السيد المسيح فى بيت لحم هو بابنا المفتوح عبر طريق الجلجثة للحياة مع الله أو بالحرى لحياة الله معنا »[1]

هنا أيضا نقف فى تخشّع ممتلىء بالفرح أمام البذل اللانهائىّ الذى حوّلنا من عبيد الى حرية مجد أولاد الله[2] فتغمرنا بهجة فيّاضة لهذه المحبة الإلهية . **وفى غمرة هذه البهجة نذكر أن السيدة العذراء عاشتها فى عمقها لتفهّمها النعمة الفريدة التى أسبغها الله عليها باختيارها الأم لأبنه الوحيد .**

١٣ ــ وفرح السيدة العذراء نابعٌ من تسليمها التام للإرادة الإلهية : هذا التسليم المبنى على إيمانها بالله وبمواعيده . **وإيمانها هو الإيمان النامى إذ يبدأ بالاستغراب** : « كيف يكون لى هذا ؟ ! » **ثم ينضج الى الاستنارة** على أثر توضيح الملاك لها هذا « الكيف » . **وتصل بها الاستنارة الى التسليم الفورى** . وبهذا الإيمان أصبحت أولى المؤمنات والمؤمنين بالفادى الذى سيحلّ فى وسطنا ويعيش بيننا وفينا . فمن الممكن أن نتصوّر أنها بذلت كيانها بغاية الفرح .

وهذا الفرح الذى غمر كيان السيدة العذراء نستشعره فى قداساتنا كلما تعمّقنا صلواتها . فالكنيسة التى هى أمنا ، كالعذراء ، مليئة بالفرح أيضا . فالصلوات تبدأ بالشكر ، والشكر تعبير عن الفرح بعمل الله . وخلال القداس الإلهى نهتف : « نسبحك . نباركك . نشكرك . ونتضرع اليك يا إلهنا ... » وفى أثناء التناول يترنّم الشمامسة بالمزمور المائة والخمسين الذى ينادى على جميع

---

(١) عن « التجسد الإلهى » للأنبا كيرلس عامود الدين ، مقال نشرته مجلة مرقس فى عددها الصادر فى يناير سنة ١٩٧٨ ، ص ١ ــ ١٥

(٢) يقول الكاتب الانجليزى سى. اس. لويس إنه لو تصوّرنا إمكان تحويل الدُمية الصفيح الى إنسان لأمكننا أن ندرك العمل العجيب الذى صنعه فينا السيد المسيح بتحويلنا الى أبناء لله !

المخلوقات بتسبيح الله وينتهى بكلمات : « كل نسمة فلتسبّح اسم الرب إلهنا . هللويا . » فالكنيسة هى أيضا تعبّر عن فرحتها بابن الله الذى هو رأسها وهى جسده السرّى . **فكما تفرح العروس بعريسها هكذا تفرح الكنيسة بربها ، وبهذا الفرح الغامر تتناغم مع السيدة العذراء والدة الإله .**

وهنا تحضرنى ملحوظة قالها موسيقار فرنسى تعبيراً عن عمق الأثر الذى أحدثته ألحاننا القبطية فى نفسه ، قال « إن الآباء الذين وضعوا هذه الألحان عرفوا أن يمزجوا بين الحزن والفرح فيها . **ففى عنف الحزن الذى تتّسم به ألحان يوم الجمعة الحزينة ترنّ ومضة من الفرح ؛ وفى التهليل البهيج لعيد القيامة : التهليل الذى ينادى به الأرضيّون السمائيين للاشتراك معهم فيه ترنّ همسةٌ من الأسى .** » وهذا التعبير هو صورة صادقة لتلك التى جاز فى نفسها السيف : **ففى أغوار فرحتها بأنها المختارة لأن تكون الأم لابن العلى تلمح شبح الصليب ؛ وفى بسالتها أمام ابنها الحبيب المعلّق على خشبة الصليب ترى خلاص العالم .** لهذا كله يجب أن نتيقّن من أنها العذراء الفرحة المتهللة المبتهجة على الرغم مما جازته من ألم .

ففى السيد المسيح تبدأ رحلتنا من الأرضيات الى السماويات .
وفى السيد المسيح يغمر الفرح كل حزن
وفى السيد المسيح تتسامى الروح فتعلوا على كل أسى[1]

(١) عن التقويم السنوى الذى أخرجه رهبان دير السيدة العذراء (البرموسى) للسنة الحالية (سنة ١٩٨٥) ، وصورة السيد المسيح التى تزيّن التقويم يقدّمونه لنا وقد أشار الى الأمام بأصبعه قائلا « اتبعنى أنت »

ومقام السيدة العذراء فى كنيستنا المحبوبة يحتلّ مكانة شعبية كريمة جداً كما أنه مصدر فرح الكنيسة كلها . فشخصية والدة الإله محبوبة للغاية : حتى صومها الذى تفرضه الكنيسة تذكاراً لها وتيمّنا بشفاعتها وتكريما لجهادها يصومه الشعب بابتهاج كما أن الكثيرين يتقشّفون خلاله ـــ وتقشّفهم بمحض اختيارهم . بل وفى تذكار إصعاد جسدها الى السماء[1] لا يكف الشعب عن فرحه وتهليله لها بالألحان المبهجة التى ترفع النفس الى شركة الروح مع القديسين .

وهناك لحن غاية فى الفرح يصوّر البشارة تصويراً مبدعاً بنغمة مفعمة نعمة ، وهو « إفرحى يا مريم العبدة والأم لأن الذى فى حجرك الملائكة تسبحه والشاروبيم يسجدون له باستحقاق والسيرافيم بغير فتور . »

والكنيسة بعد أن تتغنّى بلحن « ياملك السلام » تهتف بتسبحة « السلام للملكة » . فالكنيسة بهذا الربط ترى بالروح العذراء القديسة متجلّية الى جوار الحمل . ولكى نتيقّن مدى هذا الإدراك وجب أن نعرف أن النغمة التى تترنّم بها فى اللحنيْن واحدة . وليس ذلك فحسب بل إن كنيستنا تنادى على الملاك غبريال فى ثيئوتوكية الأربعاء بقولها : « **عظيمة هى الكرامة التى استحققتها ياغبريال الملاك المبشّر . ووجهك يتلألأ فرحاً أعلنت ميلاد الله الذى أتى الينا .** »

أما سرّ فرح الخليقة بالعذراء القديسة مريم ومسرّة الملائكة والبشر بها فهو فى الحقيقة سر الشركة فى الفرح الواحد الذى صار لنا فى السيد المسيح الذى ملأ السماء والأرض ـــ الذى أول من أحسّه وتقبّله هى العذراء نفسها .

فيا أمنا القديسة تشفّعى فى بلادنا العزيزة ـــ مصر التى اختارها الله لتكون ملجأ سلام لك وليسوع الطفل عندما بيّت هيرودس ملك اليهود النيّة على قتله . أذكرى شعب مصر الذى رحّب بك وبالطفل الإله . واطلبى لنا النجاة من كل

---

(١) يجب أن ندرك الفرق بين « صعود » و « إصعاد » ؛ فالسيد المسيح صعد بنفسه بقوة لاهوته الى السماء . أما السيدة العذراء فقد أرسل الله ملائكته ليحملوا جسدها ويصعدوا به . إذن فهى لم تصعد . وهذا ما تعلمه لنا كنيستنا المحبوبة بتعييدها ليوم إصعاد الجسد العذراوى .

ضيقة . واطلبى حكمةً ومشورة للمسئولين عن مصر وأهلها ؛ ونعمة وشفافية للمتولّين أمر كنيسة مصر .

واسألى من السيد المسيح سلاماً وبنياناً لكنيسته . آمين .[1]

+ + +

(١) عن كتاب « العذراء القديسة مريم : ثيئوتوكس » للأب متى المسكين ص ٩٨ ــ ١٠٠

مديحة للعذراء

ياسلام على العذرى ... رائحتها عطره
دى جايه من الناصره ... **بفرح ومسره**
ياسلام على العذرى

قلبى يهواك ... متعشم فيك
طول عمرى راجيك ... شفاعة ياعذرى
ياسلام على العذرى

روائحك عمبر ... مدحك كالسكر
من ذاقه يسكر ... لا يفوق ولا يدرى
ياسلام على العذرى

أمشى فى نورك ... وضياء بدورك
وأوفى نذورك ... فى بيعة طاهرة

ياسلام على العذرى

يابهجة نفسى ... يافرحى وأنسى
ياسما وكرسى ... لله ذى القدرة

ياسلام على العذرى

خاطى وعاصى ... طالب خلاصى
يوم القصاص ... فجيدينى ياعذرى

ياسلام على العذرى

طلبت أنى ... من صغر سنى
أرنّم وأثنى ... فى مدح عذرى

ياسلام على العذرى

سلم رآك يعقوب أباك
وساعت آحشاك كلّى القدرة

ياسلام على العذرى

كتب العتيقة أسمتك عليقة
فيها نار بحقيقه تشعل وهى خضرا

ياسلام على العذرى

عجز جوانى وتاه صوانى
من عظم مانى فى مدح عذرى

ياسلام على العذرى

أصوات صحابة تجلو الضخامة
مبشرة بسلامة وفوز مع نصرة

ياسلام على العذرى

أصوات ملائكة فى النسا مباركة
أم الملك ملكة بالتاج والشهرة

ياسلام على العذرى

عليك سلامى فى رقادى وقيامى
بك تشفى سقامى وادوائى بك تبرا

ياسلام على العذرى

جبريل أتاك وبفمه نداك
وسلام أعطاك **إفرحى ياعذرى**

ياسلام على العذرى

يابناء الطاعة اطلبوا شفاعة
فى كل ساعة من بكر عذرى[1]

سلامى الى الجميع
جوليا غبريال

(١) وهذه مديحة ترنّمت بها فتاة قبطية

أشجع معركة فى الوجود

أشجع معركة أثيرت من قديم ، هل أقول لك اين وقعت ومتى ؟
ففى خرائط العالم لن تجدها إطلاقا
إنها المعركة التى خاضتها أمهات الناس
معركة لم تقم على البنادق والمفرقعات
ولا بالسيف ولا حتى بالقلم ،
معركة ليست بفصاحة الكلام والأفكار
الصادره عن الفلاسفة والحكماء
بل هى معركة اندلعت من أعماق امرأة : امرأة لا تهدأ ولا تستكين ؛
حملت رسالتها فى جرأة وبسالة !
فها هنا ميدان المعركة !
معركة لم تدقّ لها الطبول ولم ينادَى من اجلها الرجال ،
لم ترفرف فوقها راية ولا بيرق !
ولكن ــ آه هذه المعارك ــ كم هى طويلة المدى
تمتد من المهد الى اللحد
ومع ذلك فالأم أمينة . أمينة متألقة كالنجوم
تعارك من داخل ميدانها الفردى ــ
تعارك يوماً بعد يوم : معارك لا تنتهى
الى أن تتلاشى فى صمت وسكون !
فيا حملة البيارق والرصاص والمدافع ،
ويامن تهتفون للضباط والجنود ــ
أقول لكم إن الانتصارات الملكية العظمى
هى تلك التى خاضتها الأم فى سكون .

(عن الشاعرة الانجيلزية جواكين ميلر)

أم قبطية

تقدم لابنها صليبا على شكل مفتاح النيل (أو مفتاح الحياة)
معلنة بذلك مسيحيتها وقوميتها فى آن واحد

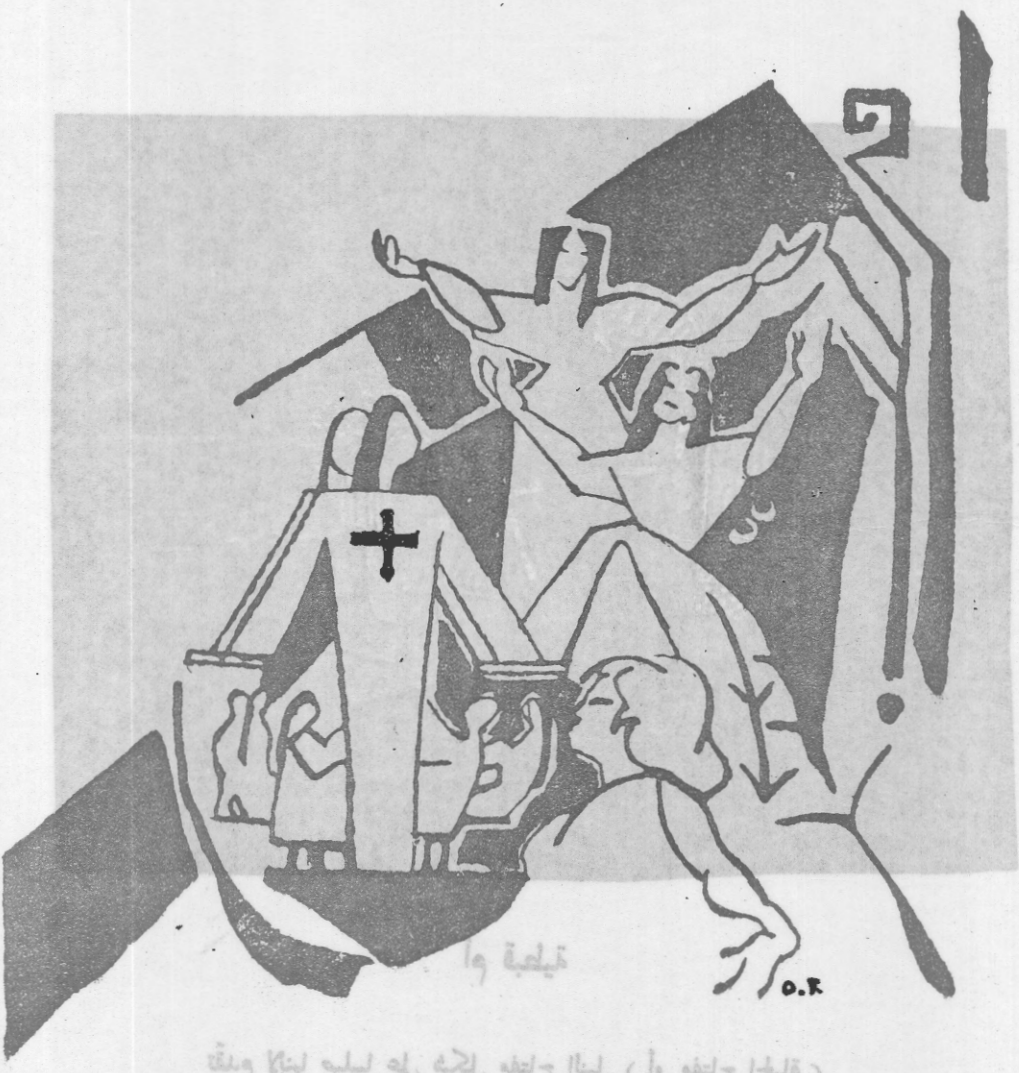

والسيدات يعبّرن عن فرحتهن بالعمل الذى كرسّن
أنفسهن لتأديته

إمرأة من بيت لحم
بثياب احتفالية

LIFE CONFRONTING AND OVERCOMING DEATH

Domitila Barrios de Chungara, Bolivia

السيدة دوميتيلا باريوس
من بوليفيا بأمريكا الجنوبية

السيدة سارة سايمون
كندية من الهنود الحمر

الأمومة الخانية

Grace Eneme (Cameroon) and Joyce Kaddu (Uganda)

جويس كاددو من أوغندا جريس إينيمى من الكامرون

روسية

أرتسم على وجهها البؤس

كينية

ت تداعب طفلا إنجليزيا

الأم العظمى

التى تجمّعت فيها تطلّعات كل نساء العالم بما فيها من آمال وآلام وقد وقفت عن يسارها إمرأة مكممة — رمز الى ماتعانيه المرأة من ضغوط مختلفة وكُتب تحت هذا الرمز « أعطوا الأطفال مستقبلاً نداءٌ موجّه الى كل من يشعر بانسانيتّـه للصراع والصلاة كى يشب الأطفال فى عالمٍ أقل بؤسا »

السيدة العذراء

فى إحدى وقفاتها عند تجليّها فوق الكنيسة التى تحمل اسمها المحبوب
بالزيتون وهى من خيال فنّان رآها واستوحى محبته لها

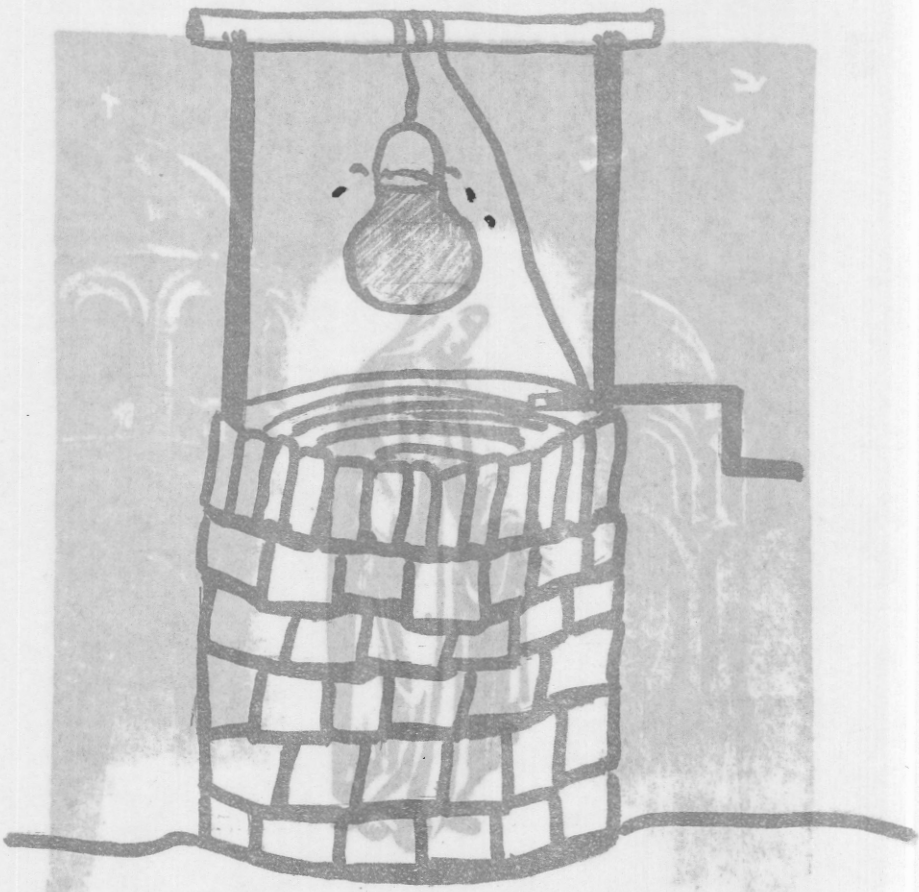

بئر كتلك التى جلس عندها السيد المسيح
فى لقائه مع السامرية

السـاهرات فى الليل

المرأة العصرية في مواجهة المسيح

ايريس حبيب المصري

المؤلفة تشير إلى منف أول عاصمة لمصرنا الحبيبة

المراجـــع

١ ــ « التجسد الإلهى » للأنبا كيرلس عامود الدين ، مقال نشرته مجلة مرقس فى عددها الصادر فى يناير ١٩٧٨ ، ص ١ ــ ١٥

٢ ــ « العذراء القديسة مريم : ثيئوتوكس » للأب متى المسكين ، مطبعة دار العالم العربى (القاهرة) سنة ١٩٦٧ .

٣ ــ « الوحدة الحقيقية ستكون إلهاماً للعالم » للأب متى المسكين ، طبع بمطبعة دير القديس العظيم أنبا مكارى الكبير بشيهيت سنة ١٩٨٤ .

٤ ــ « العذراء مثال الكنيسة » للراهب ماكس ثوريان عربّة القمص ويصا السريانى (طُبع بمطبعة دار العالم العربى ونشرته مكتبة المحبة) .

٥ ــ الأسفار القانونية الثانية (العهد القديم) نشرته كنيسة السيدة العذراء بالفجالة (القاهرة) سنة ١٩٨٢ ، وضع مقدمة له القمص متياس فريد .

٦ ــ « دراسة فى سفر يهوديت » للقس يوسف أسعد راعى كنيسة السيدة العذراء بالعمرانية (طُبع سنة ١٩٨٣)

للمؤلفة:
٧ ــ تطلّعات نحو السيدة العذراء .
٨ ــ تأملات فى سفر نشيد الأنشاد .
٩ ــ المرأة العصرية فى مواجهة المسيح .
١٠ ــ قصة الكنيسة القبطية حـ ١ و حـ ٣

11 - Pauline Webb : Where are the women ? London 1979 .
12 - Una Kroll : Flesh of my flesh, Longman 1975 .
13 - Carl Jung : Collected Works, trans by R.F.Hall, Rutledge Kegan & Paul, Vol. 15 .
14 - Dennis R. Kuhns : Women in the Church, Herald Press, Penn. 1978 .
15 - Bishop John Taylor : The Go-between- God,(1) S.C.M. London 1972 .
16 - François Chirpaz : Masculinet Feminin, Lumière et Vie, No. 106, Jan./Feb. 1927 .
17 - Women, a pub. of the W.C.C., nos. Dec. 1983 & Feb. 1984 & Sept. 1984 .
18 - The Bible Almanac, N.Y. 1980 .

---

(١) اختار الأسقف جون تايلر عنواناً طريفا لكتابه هو « الله الوسيط » إذ أراد أن يبيّن فيه أن الله كثيراً ما يتوسط بين الرجال والنساء ليحفظ بينهما التوازن الذى شاءه « منذ البدء »

٦٠ م

المركز الفنى للطباعة

العصافره البحرية ــ شارع الملازم بسيونى محمو